الصهيـونـيّة والاستعمار الاستيطانيّ: مقاربات فلسطينيّة

ندين روحانا عرين هوّاري
محرّران

مدى الكرمل
المـركـز العـربـي للـدراسـات الاجتماعية التطبيقية

الصهيونيّة والاستعمار الاستيطانيّ: مقارَبات فلسطينيّة
تحرير: نديم روحانا وعرين هوّاري

Zionism and Settler Colonialism: Palestinian Approaches
Edited by: Nadim N. Rouhana and Areen Hawari

التدقيق اللغويّ: حنّا نور الحاجّ
التصميم: أمل شوفاني
مسؤولة النشر والإنتاج: إيناس خطيب

لوحة الغلاف: "استيطان" للفنان الفلسطينيّ نبيل العناني.
نبيل العناني: فنان تشكيليّ، وُلد في قرية اللطرون (فلسطين) عام 1943.

ISBN: 978-965-7308-28-8
© كل الحقوق محفوظة 2023
مدى الكرمل- المركز العربيّ للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة
شارع هميچينيم (الملك جورج) 90، حيفا
هاتف: 048552035، فاكس: 048525973
www.mada-research.org
mada@mada-research.org

المحتويات

5 **المقدّمة**
ندیم روحانا وعرین هوّاري

19 **الباب الأوّل: الاستعمار الاستيطانيّ: مقارَبات نظريّة**

21 المقاومة الفلسطينيّة ومعضلة الشرعيّة لدى الاستعمار الاستيطانيّ في فلسطين: الصهيونيّة تردّ بالسرديّات الدينيّة
ندیم روحانا

57 جدليّة الاستيطانيّ والاستغلاليّ في بنْية الاستعمار الإسرائيليّ: الأراضي المستعمَرة عام 1967 نموذجًا
أحمد عزّ الدين أسعد

83 قراءة مقارِنة بين الحالتين الاستعماريّتين في فلسطين والجزائر
أباهر السقّا

119 الكولونياليّة الاستيطانيّة في السياق الإسرائيليّ _ الفلسطينيّ، تفكيك الاستعمار، وعلم اجتماع إنتاج المعرفة في إسرائيل
أريج صبّاغ خوري

173 بنيامين نتنياهو وإعادة إنتاج المشروع الصهيونيّ ضمن منظومة صراع الحضارات
مهنّد مصطفى

193 **الباب الثاني: السياسات الاستعماريّة الاستيطانيّة للمشروع الصهيونيّ**

195 الاقتصاد السياسيّ تحت النظام الكولونياليّ ونشوب ثورة 1936
محمود يزبك

221 البحث عن الجولان التوراتيّة: مُخيّلات يهوديّة وتأسيس الجغرافيا الاستيطانيّة في القرن التاسع عشر
عامر إبراهيم

249 سياسات نزع الطفولة ("اللا_طفلنة"): تعقُّب آثار الكولونياليّة الإسرائيليّة
نادرة شلهوب كيفوركيان

285 السياسة الحيويّة للمحو الطبقيّ الفلسطينيّ في سوق العمل الاستعماريّ
سراب أبو ربيعة قويدر

305 **الباب الثالث: في فاعليّة المستعمَر**

307 السيّدة كيرن كَييمت: تَشكُّل هُويّات رجوليّة فلسطينيّة
في ظلّ الحكم العسكريّ
عرين هوّاري

341 مفهوم التطبيع ضمن بنْية الاستعمار الاستيطانيّ في فلسطين
ما بين ثنائيّة الرفض والقبول
مَي البزور

387 الاستعمار الاستيطانيّ ومهجَّرو المدن الفلسطينيّة:
ما بين المدن المهجَّرة ومدن المهجَّرين
هبة يزبك

419 الذاكرة كموقع مقاومة: تحرير التاريخ من أَسْر حاضر مستعمَر
أميرة سِلْمي

447 المشروع الاستيطانيّ الصهيونيّ في الأغنية الشعبيّة السياسيّة:
قراءة في الشفاهيّة الفلسطينيّة الثوريّة 1917-1952
قَسَم الحاجّ

483 المساهِمون

المقاومة الفلسطينيّة ومعضلة الشرعيّة لدى الاستعمار الاستيطانيّ في فلسطين:
الصهيونيّة تردّ بالسرديّات الدينيّة

نديم روحانا

ملخَّص

تبحث هذه الدراسة حالة تفاعل المطالب القوميّة والدينيّة والاستعماريّة الاستيطانيّة في إطار المشروع الصهيونيّ، وتُشدّد على دَوْرها الرئيسيّ (حالة التفاعل) في التعتيم على الاستعمار الاستيطانيّ بوصفه إطارًا تحليليًّا مناسبًا لدراسة الصراع بين الحركة الصهيونيّة والفلسطينيّين، وتُقدِّم ثلاثة طروح رئيسيّة: الأوّل أنّ اعتماد المَطالب القوميّة اليهوديّة على الادّعاءات الدينيّة يُستخدَم للتعتيم على فهم المشروع الصهيونيّ في فلسطين بوصفه مشروعًا استيطانيًّا. الثاني أنّ أحد أسباب تغلغلِ الدين في المجال العامّ الإسرائيليّ، واعتماديّةِ التيّارات الصهيونيّة "العلمانيّة" المتزايدة على الادّعاءات الدينيّة، هو الحاجة إلى الشرعيّة في مواجهة المقاومة الفلسطينيّة المتصاعدة. الثالث أنّه في الوقت الذي كان التحوُّل إلى فصل الدين عن الدولة أمرًا ممكنًا في سياقات استعماريّة استيطانيّة أخرى، التحوُّلُ إلى العلمانيّة عصيٌّ في المنظومة الصهيونيّة، ولا يُمكن أن يَحْدث إلّا خارجها.

مقدّمة

في الـ 29 من نيسان عام 2019، خلال مداولات لمجلس الأمن التابع للأمم المتّحدة بشأن الشرق الأوسط، دافعَ السفير الإسرائيليّ في الأمم المتّحدة داني دانون (2015-2020) "عن الحقّ اليهوديّ في أرض إسرائيل، بما في ذلك المستوطنات في الضفّة الغربيّة" (Lazaroff, 2019). وخلال خطابه، اعتمر السفير غير المتديّن القبّعة التقليديّة السوداء التي يضعها المتديّنون اليهود على رؤوسهم، ورفع يده اليمنى حاملًا التوراة، وأعلن: "هذا صكّ ملكيّتنا للأرض. وهب الله هذه الأرض لشعب إسرائيل في سفر التكوين عندما أبرم عهدًا مع إبراهيم" (Danon, 2019). ثمّ اقتبس ما جاء في التوراة على أنّه كلام الله لإبراهيم: "وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهدًا أبديًّا، لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كلّ أرض كنعان ملكًا أبديًّا. وأكون إلههم".

كان رئيس الوزراء الإسرائيليّ آنذاك بنيامين نتنياهو (2009-2021) قد تعهّد، في وقت سابق من الشهر ذاته (نيسان عام 2019)، "بضمّ المستوطنات اليهوديّة القائمة في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة والاحتفاظ بالسيطرة على الأرض كلّها في حال فوزه في الانتخابات [انتخابات الكنيست الحادي والعشرين - 2019/4/9]" (Holmes, 2019, April 7). ومن هنا، بدا دانون كأنّه يَعرض للعالم مسوّغات هذا التعهُّد الذي أعلنه رئيس الوزراء. وأجاب دانون أيضًا في مداخلته عن سؤال رئيس مجلس الأمن، الذي طلب منه في جلسة سابقة، وبكلمات دانون نفسه: "أن يشرح كيفيّة تطبيق إسرائيل القانون الدوليّ، تحديدًا في ما يتعلّق بالتجمّعات اليهوديّة في يهودا والسامرة" (Danon, 2019)، حيث قال إنّ إجابته عن هذا السؤال تبدأ "بالركائز الأربع التي تثبت قضيّة مُلكيّة اليهود لأرض إسرائيل"،[1] وأُولاها التوراة -على نحوِ ما ورد في الاقتباس السابق.

يلخّص خطاب دانون، الذي ينتمي إلى حزب علمانيّ، وإجابته أمام أهمّ هيئة عالميّة للدبلوماسيّة بكلام التوراة، واستدلاله بالنصّ الدينيّ على الحقّ اليهوديّ في فلسطين،[2] أهمَّ طروح هذه الدراسة التي تُشدّد على الدَّوْر الذي تقوم به الادّعاءات الدينيّة من أجل التعتيم على جوهر المشروع الصهيونيّ بوصفه استعمارًا استيطانيًّا، سواء في ذلك عن أتباع الحركة الصهيونيّة ذاتها أم عن العالم.

تتقصّى الدراسة أيضًا المكوِّنات الأساسيّة الثلاثة في الصهيونيّة: الاستعمار الاستيطانيّ، والقوميّة الإثنيّة الحصريّة (Exclusively Ethnic Nationalism)، والادّعاءات المبرَّرة دينيًّا للحقّ في فلسطين. ومن ثَمّ تنتقل إلى البحث في التفاعلات المركّبة بين المكوِّنات الثلاثة التي تتطوّر، كما تُجادل، في سياق من المقاومة الفلسطينيّة الصُّلبة والدؤوبة، إضافة إلى الديناميّات العالميّة المتغيّرة. وتوضّح الدراسة كيف تحاول الصهيونيّة توظيف هذه التفاعلات، في الخطاب السياسيّ والأكاديميّ، للتعتيم على جوهرها بوصفها مشروعًا استعماريًّا استيطانيًّا، ودَوْرَ المقاوَمة الفلسطينيّة الحاسم في جعل هذا التعتيم غير ممكن. وتُختتَم الدراسة بالتطرّق، باقتضاب، إلى الأسئلة المرتبطة بتفكيك الاستعمار (Decolonization) وإشكاليّات التحوُّل الديمقراطيّ في إطار الصهيونيّة.

أوّلًا: الصهيونيّة بوصفها مشروعًا استعماريًّا استيطانيًّا

لا يقتصر السؤال على ما إذا كانت الصهيونيّة عبارة عن مشروع استعمار استيطانيّ أم كانت غير ذلك، باعتباره سؤالًا أكاديميًّا بحتًا، حيث يترتّب على السؤال مضامين وتبعات

1. للاستزادة، انظروا: (Dannon, n.d.).

2. وهو أمر ليس غريبًا على قادة الصهيونيّة العلمانيّة، على نحوِ ما سنرى لاحقًا.

سياسيّة وأخلاقيّة هائلة لجميع الأطراف ذات الصلة، لأنّ أنظمة الاستعمار الاستيطانيّ تفتقر إلى الشرعيّة نظرًا إلى مساعيها من أجل استغلال السكّان الأصليّين وَ/أو استبدالهم بسكّان من خارج المكان الخاضع للاستعمار الاستيطانيّ باللجوء الحتميّ إلى استخدام الوسائل والسبُل العنيفة. من هنا، السؤال في جوهره سؤال سياسيّ أيضًا. ولأنّ كلّ مشروع استعمارٍ استيطانيّ يعاني مسألة افتقاد الشرعيّة، من الضروريّ لإسرائيل العمل على نفيِ جوهر مشروعها الاستعماريّ الاستيطانيّ وإخفائِه.

مَهما كانت الآراء متباينة، المشروع الصهيونيّ أخذ، منذ البداية، مسارًا استعماريًّا استيطانيًّا، حتّى إنّه منذ بداياته استعمل بعضُ كبار منظّريه خطابَ الاستعمار الكلاسيكيّ وخطابَ الاستعمار الاستيطانيّ (روحانا، 2014). فقد وُلِدت الحركة الصهيونيّة في أواخر القرن التاسع عشر في أوروبا بأيادٍ يهوديّة _ أوروبيّة، وسَعَتْ إلى إنشاء دولة يهوديّة حصريّة في فلسطين، على الرغم من أنّ فلسطين كانت مأهولة يسكنها شعب آخر،[3] وتضمّ أقلّيّة يهوديّة تراوحت نسبتها بين 8 % وَ 9 % من مجموع السكّان في بداية القرن العشرين (Rabinovitch & Reinharz, 2007, p. 571). في ذلك الوقت، كان معظم اليهود المقيمين في فلسطين يَعتبرون أنفسهم، تمامًا كغيرهم من اليهود في العالم العربيّ، يهودًا عربًا؛ أي عربًا يعتنقون الديانة اليهوديّة (Shenhav, 2007).

قدّمت الصهيونيّة وتيّاراتها المختلفة خليطًا من المبرّرات التاريخيّة والدينيّة (وغيرها لاحقًا) للمشروع الاستيطانيّ في فلسطين، بموجبها رأت المستوطنين السكّانَ الأصلانيّين، ونفت هذه المكانة عن السكّان الأصلانيّين الفلسطينيّين العرب. سأناقش منظومة التبريرات هذه، وتحديدًا مكوِّنها الدينيّ، في المباحث التالية، لكن يكفي القول هنا إنّه بصرف النظر عن التبريرات التي قدّمها آباء هذا المشروع وداعموه الدوليّون، سلك (المشروع) مسارًا استعماريًّا استيطانيًّا منذ بدايته، وما زال متواصلًا حتّى اليوم. لذا، لم تَحْظَ تلك التبريرات بأهمّيّة كبرى بالنسبة إلى الفلسطينيّين، سكّان البلاد الأصلانيّين الذين لم تَلْقَ جهودُهم المستمرّة في إظهار ما كانوا يعتبرونه، بداهةً، مشروعَ استعمارٍ استيطانيّ، آذانًا صاغية في الدوائر السياسيّة والثقافية والأكاديميّة الغربيّة، إلّا مؤخَّرًا وعلى نحو متزايد، وإن كان غير كافٍ.

لعلّ إحدى أهمّ الخصائص التي ميّزت المشروع الصهيونيّ تمثّلت في أنّ هدفه القائم على تأسيس دولة يهوديّة حصريّة وبناء وطن قوميّ يهوديّ في فلسطين استبطن على نحوٍ

3. أعتبر السؤال عمّا إذا كان السكّان العرب في فلسطين قد طوّروا هُويّة وطنيّة أم لم يطوّروا عند بدء المشروع الصهيونيّ سؤالًا غير ذي صلة عندما يتعلّق الأمر بتحديد الطبيعة الاستعماريّة الاستيطانيّة للحركة الصهيونيّة. لكن مع ذلك، للإجابة عن هذا السؤال، يمكنكم أن تطالعوا، على سبيل المثال، كتاب "البحث عن كيان" (الشريف، 1995)، أو كتاب "الهُويّة الفلسطينيّة" باللغة الإنجليزيّة (R. Khalidi, 1997).

جوهريّ محوَ السكّان الأصلانيّين، بل من المؤكّد أنّ ذلك لم يكن ليتحقّق إلّا من خلال استئصالهم وتهجيرهم، وهما، أي التهجير والإحلال، الصفتان الرئيسيّتان اللتان تُعرِّفان الاستعمار الاستيطانيّ. وعلى الرغم من أنّ الاستئصال لم يأخذ شكل الإبادة الجسديّة الجماعيّة، كما كان الأمر في حالات أخرى، ولم تكن الإبادة أحد الأهداف المقصودة لهذا المشروع،[4] فإنّه شمل سياسات استئصالٍ وتهجيرٍ ديمچرافيّ وتطهيرٍ عِرْقيّ أدّت إلى تهجير الأغلبيّة العظمى من الفلسطينيّين من ذلك الجزء من فلسطين الذي أُسّست عليه إسرائيل. وقد شملت تلك السياسات عمليّات محوٍ وطمسٍ مكانيّ، وذلك من خلال تدمير ما يزيد عن 400 قرية فلسطينيّة، واستبدالها بمئات البلدات اليهوديّة (W. Khalidi, 2006)، إضافةً إلى عمليّات طمسٍ للوجود التاريخيّ والثقافيّ العربيّ والإسلاميّ واستبداله بالتاريخ اليهوديّ من خلال تسييس المواقع الدينيّة ومشاريع الحفريّات الأثريّة (Abu El-Haj, 2001; Herzog, 2001; Whitelam, 1996)، وسياسات بناء المتاحف والمواقع التذكاريّة وإقامة الاحتفالات الدينيّة (Makdisi, 2010; Shalhoub-Kevorkian, 2017). وكغيره من مشاريع الاستعمار الاستيطانيّ، وظّف المشروع الصهيونيّ نظام التبرير النفسيّ والإپستيميّ القائم على تحقير السكّان الأصلانيّين وامتهانهم والتمييز ضدّهم وتصويرهم همجيّين،[5] وأسَّسَ نظامَ سيطرة يميّز فيه لمصلحة اليهوديّ بالقانون (Rouhana, 2018). على أيّ حال، لن تتوسّع هذه الدراسة في الصفات والخصائص الجوهرية للصهيونيّة بوصفها مشروعًا للاستعمار الاستيطانيّ، إلّا اثنتين منها ترتبطان بطرحه:

<u>الأولى</u> أنّ مشروع الاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّ على فلسطين بأكملها (بما في ذلك في إسرائيل ضمن حدودها قبل عام 1967) لا يزال متواصلًا. لقد لجأ هذا المشروع إلى شتّى الوسائل لتحقيق أهدافه في المحو والإحلال (على سبيل المثال، من خلال الاستيطان المستمرّ في الضفّة الغربيّة وتهويد القدس وقوانين الهجرة التمييزيّة ومصادرة الأراضي العربيّة داخل إسرائيل، واستعمال التخطيط المدنيّ لمنع التوسُّع السكّانيّ

4. لم تهدف المجازر العديدة التي ارتكبتها القوّات الإسرائيليّة ضدّ الفلسطينيّين خلال حرب عام 1948 إلى الإبادة الجسديّة الجماعيّة، بل إلى التهجير، حيث ارتُكِبت على نحوٍ إستراتيجيّ لترويع السكّان الفلسطينيّين الأصلانيّين ودفعهم إلى مغادرة مدنهم وبلادهم (Abdel Jawad, 2006, pp. 72–114, 2007, pp. 59–127).

بين الفينة والأخرى، يُكشَف النقاب عن هذه المجازر التي تتسبّب في حرج للرواية الصهيونيّة (وبخاصّة أنّ المحور الأساسيّ في هذه الرواية يتمثّل في أنّ الفلسطينيّين فرّوا بكلّ بساطة، وكأنّ ذلك سيؤثّر أصلًا في ما يتعلّق بقضيّة عودتهم)، ويثور جدل محتدِم حولها. للاطّلاع على بعض ما كُشِف عنه بشأن المجازرِ التي كانت المعلومات حولها في ما سبق غير معلَنة، والنقاشاتِ التي دارت حول محاولات الأرشيف الإسرائيليّ في إخفاء الأدلّة والإثباتات، انظروا: (Shezaf, 2019, July 5).

5. تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الامتهان ما زال متجذّرًا، ويعبَّر عنه بأشكال فجّة. مثالًا لفظاظة التعبير، أَسُوق في ما يلي تصريحًا لچلعاد إردان، وزير الأمن الداخلي الإسرائيليّ آنذاك، في مقابلة إذاعية في الـ 7 من تشرين الأوّل عام 2019، أشار فيه إلى المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل بقوله: "المجتمع العربيّ عنيف جدًّا جدًّا، وألف "جدًّا" فوقها [...] إنّه [أي العنف] شيفرتهم الثقافيّة" (هآرتس، 2019، 7 تشرين الأوّل).

العربيّ وللتهجير).[6] إنّ هدفَ المشروعِ النهائيَّ، المتمثّل في إنشاء دولة يهوديّة حصريّة، وعلى الرغم من إنجاز صفة الدولة (Statehood) ذات السيادة على الأرض فعليًّا، ما زال يتوسّع بشراسة وعدوانيّة (من دون حدود نهائيّة محدّدة)، وفي الوقت ذاته ما زال مستقبَله غير محدَّد. بهذا المعنى، فإنّ إسرائيل، كدولة، ما زالت مشروعًا لم ينتهِ بعد. وقد يقول قائل: هذه هي حال العديد من الدول؛ حيث هُويّة الدولة والنظام السياسيّ والتركيبة الديمچرافيّة والعلاقات الدوليّة وقوّتها في حالة تغيُّر وتطوُّر مستمرَّيْن. لكن كون إسرائيل مشروعًا لم ينتهِ ينطوي على معانٍ أكثر عمقًا: فحدودها ما زالت غير محدَّدة، وهي نفسها تمتنع عن ترسيمها، كما أنّ عاصمتها (التي ما زالت هي نفسها من دون حدود معروفة ومحدَّدة) لا تحظى باعترافٍ إلّا من بعض الدول القليلة، وهو الاعتراف الذي تعتبره الأمم المتّحدة لاغيًا وباطلًا،[7] وتحتلّ أرضًا منذ عام 1967 - الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة (إضافة إلى مرتفعات الجولان)- لا تعترف أيُّ دولة بسيادتها عليها. وتَعتبر الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة أنّ الأراضي الفلسطينيّة التي تحتلّها إسرائيل هي في الواقع دولة أخرى (وإن كانت دولة غير عضو وتحظى بصفة مراقب)، ولا يجري الاعتراف دوليًّا بمستوطناتها اليهوديّة هناك. وثمّة رفض لشرعيّة جوهرها -أي باعتبارها دولة يهوديّة- من جيرانها ومعظم السكّان الخاضعين لسيطرتها (من غير اليهود)، وهم الفلسطينيّون من أوضاع قانونيّة مختلفة (مواطنون في إسرائيل، وَ "مقيمون" في القدس الشرقيّة، وآخرون تحت الاحتلال في ما بقي من فلسطين)، يشكّل مجموعهم ما يقارب 50% من مجموع السكّان.[8]

لكن ما يوازي كلّ ذلك أهمّيّةً هو أنّ العديد من الإسرائيليّين لا يرَوْن أنّ مستقبل إسرائيل، حسبما يصفونها ("يهوديّة وديمقراطيّة")، مضمون. وفي ظلّ هذه الظروف، تتصاعد الحاجة

6. للاطّلاع على النظام القانونيّ الإسرائيليّ حيال المواطنين العرب، انظروا: (Sultany, 2017).
ولاستعمال مشاريع التخطيط المدنيّ للحدّ من التوسّع السكّانيّ للمواطنين العرب، انظروا: (Y. Jabareen, 2017).

7. اعترفت الولايات المتّحدة الأميركيّة بالقدس عاصمةً لإسرائيل في الـ 6 من كانون الأوّل عام 2017. وعلى ضوء هذا الاعتراف، دعا قرار الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة الصادر في الـ 19 من كانون الأوّل عام 2017 "جميع الدول إلى الامتناع عن تأسيس بعثات دبلوماسيّة في مدينة القدس الشريف بموجب قرار مجلس الأمن حامل الرقم 470 المُقَرّ عام 1980" (United Nations, 2017).

8. في عام 2019، شكّل المواطنون الفلسطينيّون في إسرائيل نحو 17% من مجموع المواطنين، أي نحو 1.56 مليون شخص. أمّا الفلسطينيّون في مدينة القدس الشرقيّة المحتلّة -وعددهم 362,300- التي ضمّتها إسرائيل بُعَيْد احتلالها في عام 1967، فقد حصلوا على حقوق إقامة لا على حقوق مواطَنة، بينما لا يحظى الفلسطينيّون في الضفّة الغربيّة بحقوق مواطَنة أو إقامة. بلغ مجموع السكّان العرب في إسرائيل نحو 20.9% من مجموع السكّان الإسرائيليّين، بحسب أرقام دائرة الإحصاء المركزيّة الإسرائيليّة (أي 1,878,400 شخص من مجموع 8,967,600 نسمة). لكنْ هذه الأرقام تتضمّن الفلسطينيّين في القدس الشرقيّة المحتلّة (والعرب السوريّين في مرتفعات الجولان المحتلّة، ويبلغ عددهم نحو 26,200 شخص)(CBS, 2019a, 2019b) .

المستمرّة إلى الحصول على الشرعيّة داخليًّا ودوليًّا على حدّ سواء،[9] وتتزايد الحاجة إلى أن يقاوم الفلسطينيّون، بثبات واستمرار، سياسات الاستعمار الاستيطانيّ في الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة وفي إسرائيل نفسها، لتصبح هذه السياسات، بسبب مقاومتها، تدريجيًّا، أكثر بروزًا أمام العالم.

الثانية أنّ الصهيونيّة عكفت على تطوير مشروع استعمار استيطانيّ في حقبة أفول نجمه. وعلى الرغم من أنّه في أعقاب الحرب العالميّة الثانية كانت هنالك مشاريع استعماريّة استيطانيّة أخرى في طريقها إلى الانتهاء، وأنّ حقبةَ ما بعد الحرب تميّزت بعمليّة تفكيك الاستعمار، استمرّت الحركة الصهيونيّة في مشروعها المعاكس لاتّجاه التاريخ وقتذاك، بدايةً في داخل حدودها في الأرض المحتلّة في عام 1948، وبعد ذلك في فلسطين بأكملها. كذلك سعت إلى إخضاع شعب لديه هُويّة وطنيّة متبلورة، ومراكز مدينيّة متطوّرة، ومؤسّسات ثقافيّة وأنظمة اقتصاديّة وسياسيّة ومراكز إعلاميّة من صحافة مكتوبة نشطة وإعلام مسموع؛ لا يختلف في ذاك كثيرًا عن جيرانه. إنّ توقيت هذا المشروع، أيْ تأخُّره التاريخيّ، جعل سياسات الاستعمار الاستيطانيّ ومقاومتها أكثر وضوحًا وبروزًا على المسرح الدوليّ، كما كانت الحال بالنسبة إلى جنوب أفريقيا وزيمبابوي والجزائر. وفي الحصيلة، مسألة الشرعيّة تتفاقم في وجه المقاومة المستمرّة.

ثانيًا: الصهيونيّة بوصفها حركة قوميّة

تُعتبر الصهيونيّة حركة قوميّةً، لكنّها ليست حركة تحرّر بالمفهوم المتداول لحركات التحرُّر في العالم، أي لم تسعَ إلى تحرير أمّة أو وطن من احتلال أو استعمار قوّة أجنبيّة.[10] بل على العكس من ذلك تمامًا، احتاجت إلى مساعدة قوى استعماريّة أوروبيّة (بريطانيا على وجه التحديد)، لإنشاء وطن قوميّ ليهود أوروبا (وغيرهم من اليهود) خارج أوروبا. بهذا المعنى، تُعَدّ الصهيونيّة في جوهرها قوميّةَ استعمار استيطانيّ، لا قوميّةً تحرُّريّة. وعلى الرغم من أنّ الصهيونيّة سعت إلى معالجة الاضطهاد الأوروبيّ المروّع تجاه اليهود، الذي وصل إلى ذروته في المحرقة، فإنّ الحلّ الذي سعت إليه لم تكن وجْهَتُه أوروبا، بل لم يكن موجَّهًا ضدّ

9. توظّف إسرائيل ومؤيّدوها في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، على سبيل المثال، جهودًا كبرى في محاولة "شرح" السياسات الإسرائيليّة من خلال مشاريع مع أكاديميّين بارزين وطلبة في جامعات مرموقة وسياسيّين وإعلاميّين. وتعكس هذه الجهود الضخمة (التي يشار إليها بالعبريّة بِـ "الهَسْبَراه") شعورًا بالقلق العميق حيال سياساتها وممارساتها. إنّ التركيز على الولايات المتّحدة الأمريكية مرتبط بحقيقة أنّ الصهيونيّة بوصفها مشروعَ استعمارٍ استيطانيّ لا تحظى بوطن أو جغرافيا، لكنّها حظيت بدعم سياسيّ مشابه لِما يمكن اعتباره متروپولًا من البريطانيّين حتّى عام 1948، وتدريجيًّا من الولايات المتّحدة الأميركيّة منذ ذلك الوقت (W. Khalidi, 1992)؛ ومن ثَمّ، يُعَدّ الرأي العامّ في المتروپول النافذ أساسيًّا لقدرة المشروع على الاحتفاظ بالدعم السياسيّ.

10. في الخطاب الصهيونيّ التاريخيّ، يتّخذ مفهوم "التحرير" موقعًا مركزيًّا. على سبيل المثال، سُمِّيت حرب عام 1948 "حرب التحرير"، أي التحرير من يد السكّان الأصلانيّين الفلسطينيّين.

الدول الأوروبيّة، بل في أراضٍ أخرى: فلسطين، أو أوغندا، أو الأرجنتين، وغيرها من الأماكن البعيدة (Rovner, 2014, pp. 49–52).

بعدما وقع الاختيار في مؤتمر بازل (1897) على فلسطين، جعلت منها الصهيونيّةُ هدفًا لقوميّة الاستعمار الاستيطانيّ، ونجحت في خلق وعي قوميّ بشأنها بين صفوف أتباعها. وباشرت الحركة الصهيونيّة، قبل زمن طويل من إنشاء إسرائيل، في تشكيل منظَّمات قوميّة، بما فيها منظّمات عسكريّة ومنظّمات للعمل، وصندوق لاستملاك الأراضي الفلسطينيّة، ومؤسّسات أكاديميّة، ومنابر ووسائل إعلاميّة وثقافيّة. بهذا المعنى، وُجدت مجموعةٌ منظَّمة مستعدّة ومصمّمة، ونجحت في تخيُّل وبناء وتشكيل نفسها، أو جزء منها، ليتجلّى على شكل قوميّ.

إنّ مناقشة أساطير هذا التجلّي القوميّ، وإن تلاعبت بها النخَب وَ/أو القوى الخارجيّة، لا يقلّل أبدًا من صدقيّتها بالنسبة إلى أصحابها. ففي نهاية المطاف، ما كان من الممكن اختراع وعي قوميّ إن انعدمت العناصر الأساسيّة الضروريّة لنجاح المخيال القوميّ، كبعض القواسم الثقافية المشتركة الأساسيّة، والمظالم على أساس الهُويّة الجمعيّة، على سبيل المثال. بَيْدَ أنّ العاقبة الوخيمة هي أنّ الصهيونيّة ما كان لها أن تحقّق الهدفَ المنشود للحركات القوميّة -أي السيادةَ القائمة على الأرض وصفةَ الدولة- من دون أن تصبح مشروعًا للاستعمار الاستيطانيّ، سواء جرى تنفيذه في فلسطين أم في أيّ مكان آخر، لأنّها كانت تحاول أن تصنع قوميّة واحدة من جماعة يجمع بين أفرادها الدينُ على الأقلّ والمظالم المشتركة ومزايا ثقافيّة، لكنّها منتشرة ومتناثرة حول العالم، ومفتقدة للوجود المركَّز في أيّ مساحة جغرافيّة واحدة.

لم تكن القوميّة الصهيونيّة ذات طابع استعماريّ استيطانيّ وغير تحرُّريّ فحسب، بل جسّدت كذلك أيديولوجيّة قائمة على الإثنيّة الحصريّة، بدلًا من القوميّة القائمة على أساس المواطَنة أو تلك التي من الممكن أن تسمح وتُفضي لأن تتحوّل إلى قوميّة على أساس المواطَنة.[11] وتدّعي الصهيونيّة أنّها تمثّل الشعب اليهوديّ، غير أنّه حتّى تعريف "من هو اليهوديّ" نفسه، وهو السؤال الذي طالما شغل الأوساط الدينيّة والسياسيّة، يتمحور في دَوْر التعريف الدينيّ لمن يمكن اعتباره يهوديًّا. إنّ هذه الطبيعة الحصريّة متشدّدة إلى الحدّ الذي لم تتمكّن معه إسرائيل -حيث 25% من مواطنيها هم من غير اليهود (CBS, 2018)- من تطوير حتّى مفهوم "الشعب الإسرائيليّ" أو "الأمّة الإسرائيليّة"، وذانك مصطلحان لا وجود لهما في أيّ لغة في اللغة العبريّة.[12]

11. للاطّلاع على الفرق بين هذين النوعين من المواطَنة، انظروا: (Brubaker, 1988)؛ وحول إسرائيل بوصفها دولة يهوديّة حصريّة دستوريًّا، انظروا: (Rouhana, 1997)؛ وحول الأنواع المختلفة للمواطَنة، انظروا: (A. Bishara, 2017).

12. تشير كلمة "هَعام" باللغة العبريّة إلى الشعب، عادةً ما يُدمَج بينها وبين كلمة إسرائيل "عامْ يِسْرائيل"، والتي تعني حرفيًّا "شعب إسرائيل". يُستَخدم هذا المصطلح للإشارة إلى جميع اليهود، ولا تعني الأمّة أو الشعب الإسرائيليّ كأمّة مواطنين، مثل الشعب الفرنسيّ أو الشعب الأميركيّ أو الشعب اللبنانيّ. ولعلّ المصطلح الأقرب إلى "الشعب الإسرائيليّ" هو "مواطنو دولة إسرائيل"، لكن عندما تُستخدم الكلمة "إسرائيليّون" لوحدها باللغة العبريّة، فإنّ المعنى الضمنيّ لها يشير، غالبًا، إلى اليهود الإسرائيليّين حصريًّا.

في واقع الأمر، ليس ثمّة قوميّة أو وطنيّة إسرائيليّة في إسرائيل، بحسب ما قرّرته المحكمة العليا الإسرائيليّة في قرارها الصادر في الثاني من تشرين الأوّل عام 2013، الذي رفض التماسًا مقدَّمًا من 21 مواطنًا إسرائيليًّا (يهودًا وعربًا) طالبوا فيه بتعريف "قوميّتهم" على أنّها "إسرائيليّة" في سجلّ السكّان المدنيّ؛ أي إنّهم طالبوا بتغيير قوميّتهم من "يهوديّ" أو "عربيّ"، وهما القوميّتان المعتمَدتان حاليًّا في بطاقة الهُويّة، لتصبح "إسرائيليّة"، في سعي للحصول على دعم قانونيّ لادّعاءاتهم بوجود "شعب إسرائيليّ". وفي نصّ قرارها، دافعت المحكمة عن أنّه "لا دليل على وجود 'شعب إسرائيليّ' بشكل منفرد"(Hovel, 2013, October 3) ، وأعادت تأكيد الطروح والحجج التي قُدّمت قبل 40 عامًا في معرض قضيّة مشابهة (Gross, 2013, October 3). وأورد أحد القضاة أنّه "لم يُقدَّم أيّ دليل قانونيّ على وجود 'شعب إسرائيليّ'، ومن غير الملائم التشجيع على خلق تشظّيات جديدة للشعب" (Hovel, 2013, October 3). وبناء عليه، فإنّه بموجب القانون، لا تسمح إسرائيل بنشوء قوميّة (مبنيّة على المواطنة) تضمّ اليهود والعرب (وغيرهم). فالقوميّة الوحيدة المعترَف بها في إسرائيل هي القوميّة اليهوديّة،[13] ولا يمكن لأحد أن ينضمَّ إلى هذه القوميّة (الشعب اليهوديّ) إلّا من خلال المسار الدينيّ، أي بتحوُّله إلى الدين اليهوديّ.

لذا، تُعتبر مطالَبات المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل بالمواطَنة المتساوية في "دولة لكلّ مواطنيها" -وهو المشروع الذي قدّمه حزب التجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ في العَقد الأخير من القرن الماضي- تطرُّفًا، وتُستخدم في محاولات لحرمان الأحزاب السياسيّة من الحقّ في الترشُّح للانتخابات البرلمانيّة (A. Bishara, 2017; Masri, 2017; Sultany, 2017). وقد أعاد قانون القوميّة الأخير التكريس الدستوريّ لإسرائيل باعتبارها دولة لليهود فحسب، ومن ثَمّ استثنى ومنع نحو ربع مواطنيها (من غير اليهود) من إمكان الادّعاء أنّ إسرائيل هي دولتهم (H. Jabareen & S. Bishara, 2019; Masri, 2017)، أو حتّى موطنهم.

ثالثًا: الصهيونيّة والالتحام بين الدينيّ والقوميّ

بخلاف المسيحيّة الصهيونيّة، التي تُعتبر توجُّهًا دينيًّا سياسيًّا يؤيّد معتنقوها "عودة اليهود" إلى الأراضي المقدَّسة تحقيقًا لنبوءة توراتيّة ولأهداف دينيّة، تُعَدّ الصهيونيّة أيديولوجيّةً قوميّةً تُمثّل إحدى الحالات الأشدّ تطرُّفًا في العصر الحديث التي يلتحم فيها الدينيّ بالقوميّ (على سبيل المثال: القوميّة الصربيّة؛ حركة الهندوتڤا في الهند؛ القوميّة السينهاليّة في

13. على الرغم من أنّ بطاقات الهُويّة الإسرائيليّة تَستخدم المصطلحَيْن "عربيّ" وَ "يهوديّ" في خانة القوميّة، لا تعترف إسرائيل بالعرب بوصفهم مجموعة قوميّة وطنيّة، وتعترف باليهود فقط. وكان عزمي بشارة قد قدّم في عام 2001 مشروع قانون في الكنيست عن حزب التجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ، يطالب بالاعتراف بالفلسطينيّين في إسرائيل كأقلّيّة قوميّة؛ ولم يُقبَل المشروع.

سيرلانكا).[14] وبغية فهم مدى عمق هذا الالتحام، يمكن أن ننظر إلى التطابق الكامل بين الديانة اليهوديّة والقوميّة اليهوديّة؛ إذ بناءً على الفكر الصهيونيّ وتمثُّلِه في دولة إسرائيل، لا يُعتبر الشخص يهوديًّا من حيث القوميّة إلّا إذا كان يَدين بالديانة اليهوديّة، والعكس صحيح.[15] فعلى سبيل المثال، لا يُعتبر المهاجرون من الاتّحاد السوفياتيّ السابق الذين لا يَدينون بالديانة اليهوديّة يهودًا من حيث القوميّة، على الرغم من أنّ إسرائيل قبلتهم مواطنين بناء على قانون العودة (أي عودة اليهود إلى وطنهم)، نظرًا إلى علاقتهم بطريقة معيّنة بيهوديّ في عائلتهم. فهم مواطنون إسرائيليّون، مثلهم مثل المواطنين الآخرين من غير اليهود، كما هي الحال بالنسبة إلى المواطنين الفلسطينيّين، لكن لأنّهم ليسوا يهودًا بالمعنى الدينيّ، ومن ثَمّ بالمعنى القوميّ، فإنّ هناك ثمنًا يجب دفعه.

كما تشرح كراڤيل - توڤي، أنشأت إسرائيل صلةً قويةً بين قضايا التحوُّل إلى الديانة اليهوديّة من جهة، وقضايا الهجرة ومنح الجنسيّة من جهة أخرى. وأصبحت مكانة الشخص في ما يتعلّق بطريقة تحوُّله إلى الديانة اليهوديّة (بحسب أيّ توجُّه دينيّ)، بالنسبة إلى المهاجرين والمواطنين على حدّ سواء، تُحدِّد الاعترافَ بحقوقه المدنيّة، والامتيازاتِ الماليّةَ والخدماتِ الدينيّةَ (كمراسم الزواج والدفن -على سبيل المثال) (Kravel-Tovi, 2012). وتصف كراڤيل - توڤي الكيفيّة التي تُحدَّد بها هيمنة المؤسَّسة الحاخاميّة اليهوديّة المتشدّدة على عمليّة التحوّل إلى الديانة اليهوديّة المعترَف بها رسميًّا في الدولة، حيث لا يمكن لمن يعتنق الديانة اليهوديّة أن يصبح يهوديًّا من ناحية قوميّة، إلّا إذا تحوّل إلى الديانة اليهوديّة بموجب قوانين التيّار اليهوديّ الدينيّ المتشدّد (هَلَخاه). في المقابل، لا يستطيع شخص خرج من الديانة اليهوديّة أن يطالب قانونيًّا بالحفاظ على قوميّته اليهوديّة (Pap, 2013, pp. 144–149). ولأنّ الصهيونيّة تَعتبر جميع اليهود مجموعةً قوميّة، لا مجموعةً دينيّة فحسب، فإنّها، ضمنًا، تَعتبر الجاليات اليهوديّة في الدول الأخرى غير إسرائيل أعضاءً في المجموعة القوميّة اليهوديّة كذلك، بصرف النظر عمّا إذا كانوا يوافقون على ذلك أم لا.[16]

14. لدراسات مقارنة في القوميّة الصربيّة وحركة الهندوتڤا في الهند والقوميّة السينهاليّة في سيرلانكا، انظروا: (Rouhana & Shalhoub-Kevorkian, 2021).

15. ينصّ قانون العودة (1950) على ما يلي: "اليهوديّ يعني الشخص الذي وُلِد لأمّ يهوديّة أو اعتنق اليهوديّة، والذي لا يكون من أتباع ديانة أخرى". ويقبل هذا القانون، بشكلٍ واعٍ، غير اليهود إن كانوا أقرباء لليهود وبشكل محدَّد؛ إذ ينصّ القانون على أنّه "في ضوء ذلك، فإنّ حقوق اليهوديّ وحقوق اليهوديّ المهاجر إلى إسرائيل ["هَعُولِيه"] بموجب قانون القوميّة[...] تُمنح لطفل/ة وحفيد/ة اليهوديّ وزوج/ة اليهوديّ وزوج/ة ابن اليهوديّ وزوج/ة حفيد/ة اليهوديّ، ما عدا الشخص الذي كان يهوديًّا، ومن ثَمّ قام وبشكل طوعيّ بتغيير دينه" (قانون العودة، 1950).

16. ومن ثَمّ، على الرغم من أنّ الجالية اليهوديّة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة -على سبيل المثال- لا تدّعي أنّها تُشكِّل مجموعة قوميّة، فإنّ أفراد هذه الجالية -وَفقًا للحركة الصهيونيّة- هم أعضاء في مجموعة قوميّة.

لكن التجلّي السياسيّ الأهمّ والأوضح لهذا الالتحام بين القوميّة والدين هو في ادّعاء الصهيونيّة، بناءً على وعد إلهيّ، أنّ فلسطين هي الوطن القوميّ لليهود. فهذا الادّعاء تحديدًا هو ما يجعل من هذا التشابك المعقَّد والوثيق غير قابل للفصل، ويجعل من سياسات الدولة المبرَّرة دينيًّا على نحوٍ سافر أمرًا حتميًّا.

لقد وُظّفت الاستعارات والنصوص الدينيّة في الخطابات الاستعماريّة للعديد من المشاريع الاستعماريّة والمشاريع الاستعماريّة الاستيطانيّة. وقد استَحضَرت مجتمَعات الاستعمار الاستيطانيّ، بدرجات متفاوتة، العهدَ القديم في مشاريعها، بما في ذلك ما كان في أميركا الشماليّة (McSloy, 1996; Goldman, 2004; Prior, 1997) وفي جنوب أفريقيا وإيرلندا الشماليّة (Akenson, 1992). لكنْ ما تفرّدت به الصهيونيّة في الالتحام هو أنّها، بخلاف المشاريع الاستعماريّة الاستيطانيّة الأخرى، استغلّت أنّ لدى الشعب اليهوديّ صلةً ثقافيّة (ذات بعد دينيّ بارز) بفلسطين. وعلى العكس من مشاريع الاستعمار الاستيطانيّ الأخرى ذات الظروف التاريخيّة والمسارات السياسيّة المختلفة التي تخلّت عن الادّعاءات الدينيّة وسَعَتْ إلى إيجاد مصادر بديلة لشرعيّتها -مثل النظام الديمقراطيّ والمواطَنة المتساوية- ازداد استناد أَتْباع الصهيونيّة إلى هذه التبريرات عمقًا، وكانت الصلة الثقافيّة بالمكان أمرًا حاسمًا في هذا الشأن.

ومن قَبيل المفارقة أنّ الصهيونيّة العلمانيّة هي التي استخدمت الادّعاءات الدينيّة لتأسيس هذا الاستحقاق حيال فلسطين. وقد كان جوهر الصهيونيّة، كما تَصَوَّره مؤسِّسوها العلمانيّون، يتمثّل في تحويل هذه الصلة الثقافيّة -من خلال التركيز على المكوِّن الدينيّ منها- إلى استحقاق سياسيّ، أي إلى حقّ حصريّ للصهيونيّين في السيادة على فلسطين.[17] وكما يبيّن نور مَصالحة، على الرغم من أنّ الصهيونيّة انطلقت أساسًا بوصفها حركة غير دينيّة، وكان آباؤها المؤسِّسون إمّا علمانيّين وإمّا ملحدين، فإنّها استغلّت الرواية التوراتيّة لشَرْعنة ادّعاءاتها ومَطالبها في فلسطين (Masalha, 2007).

لقد استند هذا الادّعاء إلى وجهة النظر التي تقول إنّ الله قد منح الأرض لليهود في الكتاب المقدَّس. ويطلِق مَصالحة التسمية "أرض الميعاد - الشعب المختار" على هذا النموذج الذي بموجبه تَمنح التوراةُ اليهودَ "صكَّ ملْكيّة" لفلسطين مقدَّسًا وموقَّعًا من الله. وقد أصبح هذا الادّعاء الركيزة الأساسيّة لشرعيّة عمليّة إقامة دولة يهوديّة في فلسطين، فعلى سبيل المثال، قال دافيد بن چوريون (1886-1973)، المؤسِّس العلمانيّ لدولة إسرائيل،

17. لم تدّعِ الصهيونية الحقّ في فلسطين فحسب، بل أرادت هذا الحقّ حصريًّا للشعب اليهوديّ. وسبقت هذه الرؤية الحصريّة الممارَسة. ويتوافق هذا الادّعاء الحصريّ مع وعد الله لشعبه المختار ويُسنَد بهذا الوعد.

للّجنة الملَكيّة البريطانيّة في عام 1937: "التوراة هي انتدابنا" (Shapira, 2014).[18] وفي الـ 24 من أيّار عام 2011، خاطب بنيامين نتنياهو، أحد القادة المعاصرين للصهيونيّة "العلمانيّة"، جلسة مشتركة للكونچرس الأميركيّ، وعرض جوهر علاقة الصهيونيّة بالضفّة الغربيّة (مستخدِمًا الاسم التوراتيّ للضفّة الغربيّة، أي "يهودا والسامرة"): "في يهودا والسامرة، الشعب اليهوديّ ليس عبارة عن محتلّ أجنبيّ. لسنا البريطانيّين في الهند. لسنا البلجيكيّين في الكونچو. هذه أرض أجدادنا الأوائل، أرض إسرائيل، التي جلب لها إبراهيم فكرة الإله الواحد، وهي المكان الذي انطلق منه داود لمواجهة جُلْيات، وحيث تراءت لإشعيا رؤيا السلام الأبديّ. لا يمكن لأيّ تشويه للتاريخ أن ينكر هذه الصلة التي يعود عمرها إلى أربعة آلاف عام بين الشعب اليهوديّ والأرض اليهوديّة" (JPOST, 2011, May 24).

بالنسبة إلى الآباء المؤسِّسين للصهيونيّة، وكما هو دارج بسخرية في أوساط النُّخَب الناقدة للصهيونيّة اليوم اعتمادًا على مقولة المؤرّخ أمنون راز-كارْكوتْسْكِن: "اللّه غير موجود، وعلى الرغم من عدم وجوده جعل فلسطين أرض الميعاد للشعب اليهوديّ" (راز- كاركوتسكن، 2005، ص 71-76). لذلك، عندما يشير سفير إسرائيل العلمانيّ في حديثه أمام الأمم المتّحدة إلى التوراة بصفتها "صكّ ملْكيّة الأرض" للشعب اليهوديّ (كما ذُكِر سابقًا)، فإنّه يسير على خطى تقليد صهيونيّ علمانيّ راسخ، هو بمنزلة الخيط الذي يمتدّ ليربط المؤسِّسين العلمانيّين، مرورًا بالقيادة العلمانيّة الحاليّة -بفروع الصهيونيّة كلّها.

بهذا المعنى، فإنّ إطلاق العديد من الباحثين تسمية "المرحلة العلمانيّة" على الفترة الممتدّة من تأسيس إسرائيل حتّى أوائل السبعينيّات، يفتقر إلى الدقّة (على سبيل المثال، Peled & Herman Peled, 2019; Ram, 2008, pp. 57–73). فعلى الرغم من أنّ السياسة الإسرائيليّة في تلك الفترة لم تكن تحمل هذا الحدّ من الطابع الدينيّ على نحو صريحٍ (مقارنة بما نشهده اليوم)، فإنّ توصيفها بأنّها كانت علمانيّة يتجاهل ما كانت تنطوي عليه من قِيَم وادّعاءات وتبريرات دينيّة لأهمّ المكوِّنات الضروريّة لبناء دولة؛ أي السيطرة الديمچرافيّة، والسيطرة على الأرض، والسيادة الحصريّة للدولة (بوصفها الترجمة السياسيّة لاحتكار شرعيّة استخدام القوّة). وأُناقش في ما يلي، باقتضاب، الجوانب الدينيّة لكلّ مكوِّن من هذه المكوِّنات الثلاثة في إسرائيل:

18. كتب ريك ريتشمان أنّه من خلال هذه الشهادة التي أدلى بها داڤيد بن چوريون تأكّدت نقطة مُهمّة، وهي أنّ "حقوق اليهود الفلسطينيّين [...] لم تكن مستمَدّة من حكْم الانتداب، أو من وعد بلفور، بل كانت موثّقة تاريخيًّا في التوراة". ومن ثَمّ قال بن چوريون للّجنة: "التوراة هي انتدابنا [...] إنّ حقّنا قديمٌ قِدَم الشعب اليهوديّ، بينما ما فعله الانتداب ووعْد بلفور هو التعبير عن الإقرار بهذا الحقّ [...] نحن نعيد تأسيس شيء كان لنا في السابق، كنّا نملكه، وكان دومًا لنا عبْر تاريخ الشعب اليهوديّ بأَسْره" (Richman, 2017, February 10).

في ما يخصّ **السيطرة الديمچرافيّة**، تحفل السياسات والقوانين الإسرائيليّة بالقِيَم والادّعاءات والإشارات المرجعيّة الدينيّة. وكما طرح مَصالحة، مفهوم "الترانسفير" (أي الترحيل) نفسه -وهو الذي يُستخدم في الخطاب الصهيونيّ مَجازًا عن التطهير العرقيّ للفلسطينيّين- يكرّس الفكرة نفسها التي تقول بحقّ الشعب اليهوديّ الأصيل في ملْكيّة فلسطين على أُسُس توراتيّة (Masalha, 1992). ولهذا السبب، وكما ذكرنا سابقًا، يُعَدّ الفلسطينيّون (وهم السكّان الأصلانيّون) في الخطاب الصهيونيّ التقليديّ أغرابًا (أو حتّى غُزاةً ومتسلّلين)، بينما يُعتبَر اليهود (المهاجرون الجدد الذين وصلوا إلى البلاد للتوّ) السكّان الأصلانيّين لفلسطين، بغضّ النظر عن أصولهم الجغرافيّة. وتستند قوانين الهجرة إلى فكرة الحقّ الطبيعيّ التوراتيّ (الصكّ الإلهيّ) نفسها؛ ومن ثَمّ فإنّ المهاجرين اليهود (فقط هم) "يصعدون" ("عُولِيم") إلى أرض الميعاد التي وعدهم بها الربّ، بينما أولئك الذين يهاجرون من إسرائيل يهبطون أو ينحدرون منها ("يُورْدِيم"). تتشبّع هذه المصطلحات وترتكز على أعمق الأسس الدينيّة، كما أنّ مواطَنة العربيّ واليهوديّ نفسها تستند إلى وعد الله، وإذًا هناك مستويان مختلفان جذريًّا للمواطَنة: مستوى (يحظى بامتيازات أكبر) لليهوديّ؛ ومستوى آخر (أقلّ مكانةً وحظوةً) للعربيّ، لكن الفرق بينهما لا يقتصر على الامتيازات، بل يتجاوزها إلى مفهوم المواطَنة نفسه (للاستزادة، A. Bishara, 2017).

أمّا في ما يتعلّق **بالسيطرة على الأرض**، فقد بدأت هذه السياسة من مرحلةِ ما قبل الدولة (التي كانت تحت القيادة "العلمانيّة" المطْلقة)، حيث وَظّفت الخطُط للسيطرة على فلسطين من خلال الاستيلاء على الأرض آليّةً مشبعة بالمضمون الدينيّ، سُمّيت "افتداء الأرض"، التي تعني حرفيًّا تخليص الأرض من أصحابها العرب وإعادتها إلى الملْكيّة الأبديّة اليهوديّة. بدأ هذا "الافتداء" أو "الخلاص" من خلال الشراء (عندما كان ذاك هو الطريقة الوحيدة أمام المستوطنين الصهيونيّين)، وجرى لاحقًا من خلال استخدام القوّة والعنف والسبل "القانونيّة". افتداء أو تخليص الأرض ("چِئولات أَدَماه") هو مصطلح من الشريعة اليهوديّة (هَلَخاه)[19] يعني إعادة الأرض إلى أصحابها الأصليّين. وقد أُسّس الصندوق القوميّ اليهوديّ في مدينة بازل السويسريّة في عام 1901 تحديدًا لهذا الغرض؛ أي إنقاذ الأرض وتخليصها من أصحابها العرب (Wolfe, 2012). وعلى الرغم من اتّساق هذا الهدف بالكامل مع مشروع الاستعمار الاستيطانيّ، فإنّه في سبيل أن يصبح الصندوق "حارس الأرض للشعب اليهوديّ" نصَّ البندُ الخاصّ بتأسيسه على أنّ الملْكيّة اليهوديّة يجب أن تكون دائمة (Kats, 2016)، ولذا فإنّ أراضي الصندوق القوميّ اليهوديّ غير متوافرة إلّا لاستعمال اليهود أينما كانوا، وليس لاستعمال المواطنين العرب في إسرائيل مثلًا، وذلك اعتمادًا على المكانة القانونيّة

19. القانون الدينيّ اليهوديّ.

للصندوق القوميّ في القانون الإسرائيليّ (S. Bishara, 2018). يستند هذا البند إلى الوصيّة والأمر التوراتيّ "والأرض لا تُباع بَتّةً" (سفر اللاويّين، الإصحاح 25: 23). وتستمرّ نشاطات الصندوق القوميّ اليهوديّ ولا تقتصر على إسرائيل فحسب، بل تمتدّ كذلك إلى الضفّة الغربيّة للاستيلاء على الأراضي الفلسطينيّة لمصلحة مستوطنات يهوديّة مستقبَليّة، وفي الكثير من الأحيان من خلال عمليّات التزييف والتزوير (Jewish National Fund renews land purchases from Palestinians in The Occupied Territories, 2017).

إنّ التبعات السياسيّة لفكرة الملْكيّة الحصريّة في رسم وتطبيق سياسات الدولة وعمليّات التخطيط المدينيّ فيها وتوزيع الأراضي تبعاتٌ كبيرة جدًّا. فقد استولت إسرائيل على ملْكيّات خاصّة وعامّة كانت تعود إلى الفلسطينيّين الذين طُرِدوا من ذلك الجزء من فلسطين الذي قامت عليه؛ أي 78% من فلسطين التاريخيّة. أمّا بخصوص الفلسطينيّين الذين تمكّنوا من البقاء في ما أصبح إسرائيل، فقد باشرت سلطات الدولة في سلسلة من موجات المصادَرة، مدعومة بالقوانين التي سنّتها، ابتغاءَ نقل أغلبيّة الأرض الفلسطينيّة إلى ملْكيّة يهوديّة. ونتيجة ذلك، تسيطر إسرائيل اليوم على 93% من مجْمَل الأراضي في البلاد، ويُمنع المواطنون العرب من استعمال 80% من أرض الدولة، وتسيطر البلديّات العربيّة على 2.5% فقط من مُجْمَل الأراضي (Yiftachel, 1999). لا يمكن للعين أن تخطئ الركائز الدينيّة لهذه الأهداف السياسيّة التي جرى السعي إلى تحقيقها قبل إنشاء الدولة خلال ما سُمّيَ "المرحلة العلمانيّة".

كذلك تُستمَدّ الفكرة التي تقول إنّ الشعب اليهوديّ يمتلك الحقّ الحصريّ في الوطن من الوعد التوراتيّ أيضًا. وكما أظهر ذلك بوضوح قانونُ القوميّة الذي أُقِرّ مؤخَّرًا، لا يمكن القبول بأيّ سيادة أخرى، أو حتّى التشارك في السيادة.[20] وينبغي لنا التأكيد أنّ هذه السيادة ليست سيادة باسْم الشعب الإسرائيليّ (الذي ترفض إسرائيل الاعتراف به، كما ناقشنا آنفًا)، ولا للمواطنين الإسرائيليّين -بالمصطلح السياسيّ المعاصر- بل هي **سيادة حصريّة للشعب اليهوديّ** بأكمله في كلّ مكان حول العالم، أي بمفهوم عِرقيّ _ دينيّ عابر للحدود. ومن هذا المنطلق، فإنّ رمزَيِ الدولة -العَلَم وشعار الدولة- هما كذلك لهما طبيعة إثنيّة _ دينيّة (Fine, 2016).

لقد سعت الصهيونيّة، خلال ما سُمِّيَ "المرحلة العلمانيّة" من قوميّة الاستعمار الاستيطانيّ، مثلها كمثل أيّ حركة قوميّة، إلى الاستشهاد بالتاريخ واختراع التقاليد وإعادة إحياء لغة واستخدام الآثار خدمة لتقوية ادّعاءاتها في فلسطين وتعزيزها. ومن هنا، بادرت من خلال

20. ينصّ القانون على أنّه "حقّ تقرير المصير في دولة إسرائيل هو حقّ يخصّ الشعب اليهوديّ فقط" (قانون أساس: إسرائيل الدولة القوميّة للشعب اليهوديّ، د.ت.).

مشروع كبير إلى استخدام أسماء توراتيّة لإعادة تسمية المواقع والمشهد الفلسطينيّ (Azaryahu & Golan, 2001; Benvenisti, 2002) خدمة لأهداف الاستعمار الاستيطانيّ المتمثّلة في المحو والاستبدال. وتركّزت جهود قوميّة على توظيف اكتشافات أثريّة مُشْبَعة بالمضامين الدينيّة التوراتيّة لشَرْعَنة السيادة اليهوديّة الحصريّة (Abu El-Haj, 2001; Herzog, 2001; Masalha, 2007).

أظهر العديد من الباحثين كيف تعاملت الصهيونيّة السياسيّة العلمانيّة مع كتاب التوراة كأنّه نصّ تاريخيّ. على سبيل المثال، يقول مَصالحة إنّه جرت إعادة اختراع التوراة "كنصّ قوميّ وعِرْقيّ مقدَّس ذي أهمّيّة تأسيسيّة كأسطورة معاصرة للصهيونيّة العلمانيّة" (Masalha, 2007, p. 25). ويطرح آخرون أنّه "تدريس التوراة ككتاب تاريخ للأطفال الإسرائيليّين يخلق مفهوم الاستمراريّة، بدءًا من إبراهيم ('الصهيونيّ الأوّل' الذي هاجر إلى فلسطين)، مرورًا بيوشع الذي فتح فلسطين وسحق الكنعانيّين، إلى فتح أورشليم على يد الملك داود الذي يجري تشبيهه بما حدث في عام 1967" (Beit-Hallahmi, 1992, p. 119).

إنّ استمرار الصهيونيّين العلمانيّين في الاستشهاد بالتوراة، والعودة إليها على أنّها تاريخ، كان مصمَّمًا لتحقيق هدفين: اختراع قوميّة يهوديّة معاصرة داخليًّا للجمهور اليهوديّ، وتقديم الحجج تأييدًا للسيطرة على فلسطين. لكن ما حصل خلال هذه العمليّة أنّ القوميّة اليهوديّة أصبحت متشابكة ومتداخلة على نحوٍ عميق مع الادّعاءات الدينيّة وبطريقة يتعذّر تفكيكها. لذا، عندما ندرس كيفيّة تضمين الدين في إطار الصهيونيّة، لا تكفي الإشارة إلى القوّة المتعاظمة لدى الأحزاب الدينيّة أو سطوتها في ما يتعلّق بانتزاع تنازلات من الأحزاب العلمانيّة، وكأنّ الأحزاب العلمانيّة خالية من القِيَم والادّعاءات الدينيّة الجوهريّة.

في هذا الصدد، يشير باحثون إلى الاتّفاقيّة الشهيرة التي أبرمها بن چوريون في عام 1947، قبل إنشاء دولة إسرائيل، مع مجموعة دينيّة متشدّدة على أنّها دليل آخر على أنّ الصهيونيّة العلمانيّة قد أُجبِرت على تقديم تنازلات للقوى الدينيّة. بناء على هذه الوثيقة التي أصبحت تُعْرَف بِـ "وثيقة الوضع القائم" (Status Quo)، أُقِرّت القوانين وتوصّلوا إلى ترتيبات إداريّة، جوهرها الإقرار بأنّ الزواج والطلاق والتحوُّل إلى الدين اليهوديّ والدفن هي صلاحيّات حكريّة للربّانيّة (الحاخاميّة) اليهوديّة الرئيسيّة؛ أي إنّ الدولة والدين غير منفصلين (Barak-Erez, 2009, p. 2495). وَفْق هذا الرأي، نتج هذا "الوضع القائم" من مقايضة بين القوى "العلمانيّة" وتلك "الدينيّة"، عكست ميزان القوّة السياسيّة وقتذاك.[21] بَيْدَ أنّ الصهيونيّة

21. يدّعي آخرون أنّ الصهيونيّة العلمانيّة كانت قويّة ولم تخشَ من القوى الدينيّة، وإنّما كان هدفها في سَنّ هذا القانون كولونياليًّا وعنصريًّا: منع اختلاط اليهود بغير اليهود. انظروا: (SEZGIN, 2010, pp. 631–654).
كذلك يحاجج أستاذُ القانون الفلسطينيُّ، ميخائيل كَرَيّني، أنّ أحد أهداف إبقاء قانون الأحوال الشخصيّة الدينيّة هو منع الاختلاط بين اليهود وغيرهم (Karayanni, 2016, pp. 71–83).

العلمانيّة، التي توصّلت إلى هذا الترتيب، كانت هي نفسها مُشبَعة بالقِيَم والادّعاءات الدينيّة التي كانت ضروريّة من أجل تكريس شرعيّة المشروع الاستعماريّ الاستيطانيّ.

لقد تفشّت هذه الادّعاءات الدينيّة وانتشرت في جوهر عمليّة بناء دولة الاستعمار الاستيطانيّ وأُسُسها، وتستمرّ، خاصّة تلك التي تُشَرْعن المشروع الاستعماريّ الاستيطانيّ، في التمدّد والانتشار بين أوساط القِطاعات العلمانيّة في المجتمع. ولهذا الواقع آثار وتبعات واسعة ومتواصلة حول سبب وكيفيّة صعود المركّب الدينيّ بهذه القوّة في المجتمع والسياسة في إسرائيل، ولا يتعلّق بالقوّة التي تتمتّع بها الأحزاب الدينيّة أو الأحزاب الدينيّة القوميّة، فحسب، على نحوِ ما سأتطرّق إليه تاليًا.

رابعًا: الصعود الثابت للجانب الدينيّ في الصهيونيّة والتعتيم على حقيقة الاستعمار الاستيطانيّ

لقد تمحور تركيزي بالمحور السابق في تغلغل الادّعاءات الدينيّة في الصهيونيّة العلمانيّة، لأنّ هذا الاندماج يُعتبر أساسيًّا لفهم صعود القوميّة الدينيّة في إسرائيل منذ السبعينيّات على نحوٍ تدريجيّ وثابت، والتوسُّع الشرس لمشروع الاستعمار الاستيطانيّ في كلّ فلسطين التاريخيّة. وقد رافق هذا التوسّعَ تصاعُدٌ ملحوظ في خطاب الشَّرْعَنة الدينيّة وتغلغله في المجال العامّ.

نادرًا ما يُقْرَن الحضور المتزايد للدين في المشهد السياسيّ الإسرائيليّ بخصائص الاستعمار الاستيطانيّ للمشروع الصهيونيّ، بل غالبًا ما يُبرَّر الجانبُ المقدَّس للسياسة في إسرائيل، أي اعتمادُها صراحةً على النصوص الدينيّة، بزيادة التديُّن في أوساط المجتمع الإسرائيليّ، وكيفيّة التفاعل بين الدينيّ والقوميّ، إضافة إلى الدَّوْر المتزايد للمجموعات الدينيّة في السياسة والإعلام والجيش... ولا تجد هذه النقاشات، ومن بينها تلك التي يخوض فيها العديد من الباحثين الإسرائيليّين البارزين (على سبيل المثال: Levi, 2021, pp. 113–131; Peled & Herman Peled, 2019; Ram, 2008; Shenhav, 2007, pp. 1–30)، متّسَعًا للحديث عن الاستعمار الاستيطانيّ. لكن لا مفاجآت هنا، لأنّ عالَم الأكاديميا الإسرائيليّ قد تجنّب بأغلبيّته مناقشة الصهيونيّة والمجتمع الإسرائيليّ من هذا المنظور. وعلى الرغم من أنّ العديد من الأبحاث والدراسات في القوميّة والدين، من قَبيل ما أشرتُ إليه آنفًا، تُقدِّم تحليلاتٍ قيّمةً ومفيدة، فإنّها تغفل أو تنكر سياقَ الاستعمار الاستيطانيّ، وأثرَه في التوظيف المتزايد للادّعاءات الدينيّة في السياسة التي أصبحت ذات طابع دينيّ مقدَّس أكثر فأكثر.

ثمّة إجماع بين الباحثين الذين درسوا إسرائيل على أنّ الصهيونيّة "العلمانيّة" قد أُضعِفت تدريجيًّا، وأنّها تواصل إفساح المجال والتراجع أمام التوجُّهات الصهيونيّة الدينيّة (Davis

& Coffman, 2014). لقد دُرِس هذا الانتقال التدريجيّ والثابت للخطاب الدينيّ المتعلّق بالسياسة والقوميّة، من الهامش إلى المركز، بوضوح (Scham, 2018). وقد عالجت الأدبيّات الأسباب الكامنة وراء صعود القوميّة الدينيّة للسلطة في إسرائيل بعد عام 1967 (Bar-Tal & Salomon, 2006, pp. 26–27; Davis & Coffman, 2014, pp. 30–33; Tessler, 2009, pp. 411–412)؛ والتصاعد في نفوذ الأحزاب الدينيّة اليهوديّة في مؤسّسات الدولة الإسرائيليّة (Tessler, 2009, pp. 411–412)؛ واختراق ودخول القِيَم والخطاب الدينيّ اليهوديّ إلى المجال العامّ (حسون، 2014) والجيش (Levi, 2021).

تركّز كلّ تلك الدراسات، في ما يبدو، على الاتّصال المباشر بين الجمهور اليهوديّ والمواقع الدينيّة اليهوديّة في الضفّة الغربيّة بعد احتلالها في عام 1967، وكأنّ ذلك تسبَّب على نحوٍ ما في هذا التحوُّل الجوهريّ، على أساس أنّ ثمّة عددًا أكبر من المواقع الدينيّة اليهوديّة في الجزء الفلسطينيّ الذي احتلّته إسرائيل عام 1967 (نحو: القدس الشرقيّة؛ الخليل؛ نابلس؛ منطقة بيت لحم) مقارَنةً بتلك التي داخل إسرائيل ضمن حدود عام 1948.

لعلّه من الصحيح أنّ التحوُّل بدأ بعد سنوات قليلة من احتلال الضفّة الغربيّة، وتزامن مع ذلك الالتقاء مع مواقع يهوديّة دينيّة. لكن حقيقة الأمر هي أنّ الشروع في مشروع الاستيطان في الضفّة الغربيّة بعد احتلالها مباشرةً[22] قد قاده حزب العمل -زعيم الصهيونيّة "العلمانيّة" إذّاك- وضمّت إسرائيل القدس الشرقيّة وعدّة بلدات وقرى فلسطينيّة مجاورة خلال أيّام من احتلالها، "في مخالَفة للقانون الدوليّ" (Erakat, 2019)، على يد القيادة الصهيونيّة "العلمانيّة". ويُظهِر هذا بوضوح أنّ صعود الخطاب الدينيّ (أو الدينيّ القوميّ)، أو قوّة تلك التيّارات وخطابها الدينيّ، لم يكونا هما ما وجَّهَ مشروع الاستيطان في بداياته، أو لم يكونا رأس الحربة فيه. فضلًا عن هذا، مشروع الاستيطان قد اكتسب زَخْمًا كبيرًا في ظلّ قيادة علمانيّة أخرى -أي قيادة حزب الليكود- منذ تولّيها الحكم عام 1977. وتَواصَلَ دعم المستوطنات في عهد القيادة الصهيونيّة لحزب العمل إبّان ولاية كلّ من رئيسَيِ الوزراء يتسحاق رابين وإيهود باراك، لاحقًا، عندما تمكّن حزب العمل من رئاسة الحكومة فترات محدَّدة.

تَعتبر الصهيونيّة العلمانيّة -سواء أتمثّلت بحزب العمل أَم بحزب الليكود أو بغيرهما- الضفّةَ الغربيّة جزءًا لا يتجزّأ من أرض إسرائيل ("إِرِتْسْ يِسْرائيل") التي وعد الله بها كلّها الشعب اليهوديّ؛ لكن هذا الوعد، بما يشمل الضفّة الغربيّة، لم يتطوّر ليصبح "حقًّا" يُطالَب

22. أُسِّست المستوطنة الأولى في عام 1968. وبحلول عام 1977، عندما خسر حزب العمل السلطة لمصلحة حزب الليكود، كانت إسرائيل قد أنشأت أكثر من 90 مستوطنة في الضفّة الغربيّة (Matar, 1981; Lesch, 1977, p. 27; Tessler, 2009, p. 466).

به جهارًا، دينيًّا أو حتّى قوميًّا، قبل احتلالها في عام 1967، حيث ظلّت الضفّة الغربيّة في خلفيّة المشهد. وباستثناء ضمّ القدس الشرقيّة، ارتكزت عمليّة التبرير داخليًّا، والشرعنة خارجيًّا، لبناء المستوطنات ارتكازًا أكبر على خطاب الأمن القوميّ، أكثر ممّا على ادّعاءات ومطالَبات إثنيّة _ دينيّة.

يشير رام، مثل كثيرين غيره، إلى عام 1977 في إسرائيل، بكونه العام الذي تبلور فيه هذا الدمج والالتحام بين الدينيّ والقوميّ لدى الصهيونيّة بشكل سياسيّ واضح وصريح (Ram, 2008). ويقترح، في إطار دراسته "عودة الدين وانتعاشه في إسرائيل"، نموذجًا من أربعة مقاييس للشرعيّة السياسيّة، قائمًا على تقاطع محورَيْن: القوميّة (قويّ /ضعيف) والدين، أو ما يُسمّيه مظاهر التديُّن (قويّ /ضعيف). ولعلّه من المثير للاهتمام أنّه على الرغم من طرحه أنّ القوميّة والدين في إسرائيل مندمجان، فإنّه يكتفي بتصنيف كتلة المؤمنين الإسرائيليّين اليهود (چوش إيمونيم)[23] في فئة القوميّة الشديدة والتديُّن الشديد، ويشير إليها بالقوميّة الدينيّة التي تشبه، بحسب رأيه، حركة حماس والكاثوليكيّة الإيرلنديّة.[24]

لا أختلف مع ادّعاء بروز قوّة سياسيّة رئيسيّة تمثّل القوميّة الدينيّة في إسرائيل وتناسب تصنيف رام، لكنّي أجادل بأنّ التديّن، بمفهوم الادّعاءات الدينيّة، كان جزءًا لا يتجزّأ من الصهيونيّة إجمالًا، وليس جزءًا من أحزاب القوميّة الدينيّة فحسب، وذلك على وجه التحديد لأنّ الدين والقوميّة في الصهيونيّة مندمجان. لذا، في حين يشير رام بحقّ إلى أنّ هذا المزيج من القوميّة والتديُّن في إطار الصهيونيّة قد تغيّر عبْر التاريخ، نجد أنّه -شأنه في ذلك كشأن كثيرين غيره- يُقلّل من أهمّيّة أسس الاندماج بين الدين والقوميّة عبْر المراحل المتعدّدة كافّة، بما فيها تلك المرحلة التي يطلق عليها مسمّى "القوميّة العلمانيّة" في إسرائيل، التي وصلت -بحسب رأيه- إلى ذروتها في ستّينيّات القرن الماضي.

إنّ الحلقتين المفقودتين في مثل هذا الطرح هما: الأولى هذا التردّد والنفور، وغالبًا الابتعاد وتجنُّب النظر إلى الصهيونيّة وتحليلها بوصفها مشروعًا استعماريًّا استيطانيًّا، مدفوعًا بالحاجة المستمرّة إلى تبرير دولة يهوديّة إثنيّة حصريّة في فلسطين، وحاجة متنامية إلى شَرْعنة مشروع الاستيطان الذي لا يتوقّف؛ الثانية دَوْر المقاومة والقوّة الفلسطينيّة في دفع المجتمع الإسرائيليّ إلى عمليّات التحوُّل العميقة في هذا الاتّجاه. وسأتناول كلًّا منهما على حِدة في ما يلي.

23. وهي حركة يهوديّة دينيّة أصوليّة، برزت بعد حرب عام 1967، وشكّلت رأس الحربة في بناء المستوطنات اليهوديّة في الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة (Lustick, 1988).

24. للاطّلاع على قراءة مختلفة بشأن حماس والكاثوليكيّة الإيرلنديّة، انظروا: (Hroub, 2021; Lloyd, 2021).

1. الشَّرْعَنة الدينيّة وحجب حقيقة الاستعمار الاستيطانيّ

إنّ الدعم الدينيّ ـ القوميّ لمشروع الاستيطان أمرٌ واضح، وتضرب جذوره بقوّة في الخطاب الصهيونيّ الدينيّ الصريح (Lustick, 1988). لكنْ إلقاء اللوم، على نحو مباشر أو غير مباشر، على القوميّة الدينيّة أو على الأحزاب الدينيّة، هو برأيي خطأ مقصود ويخدم هدف إبعاد المسؤوليّة عن كاهل الصهيونيّة إجمالًا، بوصفها مشروعًا للاستعمار الاستيطانيّ. إنّ هذا التلاقي بين الدينيّ والاستعمار الاستيطانيّ، والاعتماد المتبادل بينهما، يجعلهما يصعدان إلى الواجهة بالتزامن. الصهيونيّة "العلمانيّة" هي التي بدأت المشروع الاستيطانيّ وقادَتْه، بما في ذلك الاستيطان الأراضي المحتلّة في عام 1967، وهي التي تدفعه نحو التوسّع. وتعتمد الصهيونيّة العلمانيّة، على نحو متزايد، على الشرعيّة المستمَدّة من الادّعاءات الدينيّة لخدمة مشروعها للاستعمار الاستيطانيّ (لأنّها لا تملك مصدرًا آخَر لادّعاء الشرعيّة).

لتوضيح هذه النقطة، دعونا نتخيّل لو أنّ اقتراح ثيودور هرتسل لإنشاء وطن قوميّ يهوديّ في أوغندا (أو حتّى في الأرجنتين أو أستراليا، كما جرت مناقشته خلال المؤتمر الصهيونيّ السادس الذي عُقِد في مدينة بازل في الـ 26 من آب عام 1903)، قد قُبِل، فما المبرّر الذي كانت الحركة الصهيونيّة ستستخدمه لمثل هذا المشروع؟ ولئن ظهرت الصهيونيّة متأخّرة من حيث مشاريع الاستعمار الاستيطانيّ، فإنّ الحركة ربّما كانت ستلجأ إلى استخدام الخطاب السائد لمَهَمّة التمدين والحَضْرَنة للاستعمار الاستيطانيّ أو رسائل ضمنيّة (أو صريحة)، بأنّها تخدم الدول الإمبرياليّة (كما كان الحال فعلًا بالنسبة إلى فلسطين) (Thompson, 2019). في المقابل، كان في مقدور الحركة الصهيونيّة التذرّع بأنّ اضطهاد اليهود في أوروبا الذي امتدّ بين العام 1880 والعام 1945، الذي بلغ ذروته في المحرقة، أوجد استحقاقًا لليهود بأن تكون لهم دولة خاصّة بهم (Gans, 2008)، ليكون بمنزلة ملجأ يتمتّعون فيه بالسيادة. بَيْدَ أنّه في هذه الحجّة (أو الحجج) لا مكان للأسس التوراتيّة التي تستند إليها شرعيّة المَطالب والادّعاءات الصهيونيّة في فلسطين.

يمكن أن يفترض المرء، محقًّا، بناء على تجربة مشاريع استعمار استيطانيّ أخرى في أفريقيا، أنّ الأوغنديّين كانوا سيحاربون هذا المشروع، وأنّ مقاومتهم كانت ستتصاعد ضدّ منح امتيازات للمستوطنين (اليهود في هذه الحالة) على حساب السكّان الأصلانيّين، وضدّ عمليّات الاستيلاء والمستوطنات اليهوديّة الحصريّة والسيادة الحصريّة التي هي كلّها عناصر متأصّلة في الاستعمار الاستيطانيّ. ليس ثمّة سبب للتخيّل أنّ مقاومتهم كانت

ستكون أقلّ شراسة من مقاومة الفلسطينيّين.[25] ما الذي كان في إمكان الدولة الاستيطانيّة أن تستخدمه لشَرْعَنة ادّعائها الحصريّ في الأرض، والسيادة، والتفوّق اليهوديّ على السكّان الأوغنديّين الأصلانيّين في أعين مستوطِنيها اليهود والمجتمع الدوليّ؟

لن يكون في مقدورها التذرّع بالدين، ووعد الله، أو التوراة، لتبرير هذه الممارسات. على الأغلب، كانت ستُكشف باعتبارها دولة عنصريّة شأنها في ذلك كشأن جنوب أفريقيا في ظلّ حكم الأپارتهايد، لأنّ الحاجة إلى ملجأ آمن وحدها ما كان بوسعها أن تبرّر مَطالب التفوُّق اليهوديّ على السكّان الأصلانيّين. كذلك لن يكون في مقدور الصهيونيّين الادّعاء أنّهم سكّان أصلانيّون، أو نزع هذه المكانة عن السكّان الأوغنديّين الأصلانيّين كما فعلوا في فلسطين، استنادًا إلى التبريرات الدينيّة. ولو اتّبعنا مثال جنوب أفريقيا، فإنّنا سنتوقّع أن يسعى المستوطنون أن يُضْفوا الطابع الأصلانيّ على أنفسهم. لكن هذه العمليّة الطويلة الأمد تأتي بتكلفة؛ فهي تسمّى تفكيك الاستعمار (Mamdani, 2001; Rouhana, 2018; Zreik, 2016).

في السيناريو الأوغنديّ المتخيَّل، كانت الطبيعة الاستعماريّة الاستيطانيّة للدولة المفترَضة ستتجلّى بوضوح، وكانت مقاومتها ستوضّح هذه الطبيعة على نحوٍ أكبر. ولكن في فلسطين، يحجب الإيمانُ بالادّعاءات الدينيّة على المستوى الداخليّ، والتعاطفُ والتفهُّمُ لها على المستوى الدوليّ، مشروعَ الاستعمار الاستيطانيّ وممارَساته. وكلّما ازداد تحدّي شرعيّة مَطالب إسرائيل في الأرض، وفي التفوّق اليهوديّ، سواء أكان ذاك في داخل حدود عام 1948 أَمْ في الضفّة الغربيّة، ازدادت الحاجة إلى الوعد التوراتيّ والتاريخ الدينيّ لكسب الشرعيّة. إنّ اللجوء إلى الادّعاءات الدينيّة أساسيّ لا للشرعيّة الداخليّة بالنسبة إلى المستعمرين فحسب، بل كذلك أساسيّ هو في مخاطَبتهم ضحاياهم والمجتمع الدوليّ. وهي تساعدنا كذلك في التوقّع أنّ من شأن هذه الادّعاءات، على الأرجح، أن تتزايد كلّما كُشِف النقاب عن الطبيعة

25. زار وفد إسرائيليّ برئاسة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو أوغندا بمناسبة الذكرى الأربعين لعمليّة عِنتيبي (التي اقتَحمت فيها مجموعة من الكوماندوز الإسرائيليّين طائرة اختطفتها مجموعة من الفلسطينيّين واليساريّين الألمان واحتجزتها في عِنتيبي، وعملت على إنقاذ المسافرين وقتل الخاطفين. في هذه العمليّة، قُتل الضابط الإسرائيليّ، يوناتان نتنياهو أخو بنيامين نتنياهو). وفي معرض حديثه أمام الوفد الإسرائيليّ في الـ 4 من تمّوز عام 2016، ألقى الرئيس الأوغنديّ يوويري كاچوتا ما اعتبرته وسائل الإعلام خطابًا غريبًا، استخدم فيه كلمة "فلسطين" للإشارة إلى إسرائيل مرّات عدّة. وقال إنّ وزير خارجيّة الإمبراطوريّة البريطانية بلفور (1916-1919) اقترح أن تكون أوغندا وطنًا للشعب اليهوديّ. شكر الرئيس اليهود على عدم قبول الفكرة، وقال للوفد الإسرائيليّ الذي حضر المراسم: "لحسن الحظّ لم يقبل اليهود فكرة بلفور، وكان ذاك أمرًا جيّدًا، ولولاه لكنّا مستمرّين في محاربتكم الآن" (Brand, 2016, July 5; NTVUganda, 2016, July 4).
لقد كان ذاك حقًّا تصريحًا بسيطًا بدلالات كبيرة، أدلى به الرئيس الأوغنديّ أمام رئيس الوزراء الإسرائيليّ والوفد المرافِق له، وأظهر على نحوٍ قاطع أنّ من الطبيعيّ، وبحسب ما يتوقّعون، أن يقاوم السكّان الأصليّون الاستيطان الصهيونيّ على أرضهم. كان هرتسل، الرئيس الأوّل للمنظّمة الصهيونيّة العالميّة، هو من قدّم هذا المقترَح في عام 1903. وقد أُسقط المقترَح بالتصويت من المنظّمة نفسها في عام 1905 بُعَيْد وفاة هرتسل (Kornberg, 1980). ويجدر بالتصويب هنا أنّ وعد بلفور صدر في عام 1917 على هيئة رسالة موجَّهة إلى اللورد روتشيلد بشأن فلسطين لا بشأن أوغندا.

الاستعماريّة الاستيطانيّة التي يتّصف بها مشروع الصهيونيّة؛ وذلك على نحوٍ أساسيٍّ من خلال المقاومة الفلسطينيّة ومؤيّديها في العالم.

يمكن للتمرين الذهنيّ بشأن إقامة الدولة اليهوديّة في أوغندا أن يمنحنا دراية نظريّة وسياسيّة جوهريّة لا يمكن التطرُّق إليها بالكامل هنا،[26] لكن من المهمّ الإشارة إلى ما يكشفه هذا التمرين الذهنيّ بشأن الشعب الخاضع للاستعمار، حيث إنّه في ما يخصّ تنفيذ المشروع في أوغندا أو في فلسطين، قضيّةُ دافع المستعمِر للقيام بذلك ليست ذات أهمّيّة بالنسبة إلى الشعب الأصلانيّ؛ وذلك أنّ صيرورة إنشاء وطن قوميّ يهوديّ حصريّ (أو وطن للبيض) ستتبنّى حتمًا سياساتِ وإستراتيجيّاتِ استعمار استيطانيّ، بحسب ما يُمليه المنطق الذي يحكم ديناميّات المشروع. في ما يخصّ السكّان الأصلانيّين، لا يمكن للحجج التاريخيّة بشأن وجود صلة ثقافيّة بالأرض (الأمر الذي لا يمكن إنكاره في حالة اليهود وفلسطين)، أو للادّعاء بالحقّ، بناء على سرديّة توراتيّة، لا يمكن لكلّ هذه أن تحجب طبيعة المشروع، أو أن تَثنيهم عن مقاومته بقوّة وإصرار.[27]

تكتسب التبريرات التي يَسوقها المستعمِر ويستخدمها لشَرْعَنة مشروعه أمام جمهوره وأمام العالم أهمّيّةً كبرى بالنسبة إلى المجتمع الاستيطانيّ، وتكتسب قضيّة إضفاء الشرعيّة أهمّيّة خاصّة عند الردّ على مقاومة السكّان الأصلانيّين، وهو الموضوع الذي سأتناوله تاليًا.

2. المقاوَمة الفلسطينيّة والشَّرْعَنة الدينيّة

العامل الرئيسيّ الآخر في صعود البعد الدينيّ للصهيونيّة، كما أجادل، هو المقاومة الفلسطينيّة. أتوسّع هنا في نقاش مفهوم أساسيّ في دراسات الاستعمار الاستيطانيّ، يقول مُحِقًّا إنّ مشاريع الاستعمار الاستيطانيّ القائمة على محو السكّان الأصليّين (وهو في هذه الحالة المحو الديمـجرافيّ ومحاولات المَحْو القوميّ) تشكّل بنْية ("Structure") أكثر ممّا تشكّل حدثًا منفردًا، بحسب مصطلحات وولف (Wolfe, 2006). ذاك يعني أنّ الاستعمار

26. يجدر التفكير في ما إذا كان من شأن استخدام عصا اللاساميّة ضدّ من ينتقد الدولة الاستعماريّة يمكن أن يكون بهذه السهولة لو أنّ الدولة أُسّست في أوغندا، أم أنّ هذا التأطير للصهيونيّة بوصفها حركة استعمار استيطانيّ سيكون أكثر قبولًا في هذه الحالة.

27. جرى التطرّق إلى قضيّة الاستعمار الاستيطانيّ والصهيونيّة خلال محادثة مثيرة حدثت في عام 1993 بين اثنين من أشهر المفكّرين المعروفين في البلد، أحدهما إسرائيليّ والآخر فلسطينيّ. تناول عزمي بشارة الصهيونيّة ضمن إطار الاستعمار الاستيطانيّ. في المقابل، جادل يهوشوع ليبوڤِتْس بأنّ الصهيونيّة ليست حركة استعمار استيطانيّ، لأنّه "في ما يتعلّق بالأرض التي نطلق عليها 'إرِتْس يِسْرائيل' ويطلقون عليها فلسطين، هناك شعبان: كلّ منهما يمتلك الوعي العميق بأنّ هذه الأرض هي وطنه". ومن ثَمّ أضاف قوله إنّه لا علاقة استعماريّة، وذلك لأنّ الصهيونيّة "لا يوجد ضمن أهدافها، هدف السيطرة على شعب آخر" (على الرغم من قوله إنّه بعد عام 1967 أصبحت الهيمنة والسيطرة جزءًا من الصراع). أجابه بشارة قائلًا إنّ موضوع الدافع ليس له أهمّيّة بالنسبة إلى الشعب الأصليّ، إن كانت عمليّة إنشاء وطن قوميّ لليهود في فلسطين ستَعتمد، بحسب منطق المشروع، سبل الاستعمار الاستيطانيّ (ليبوڤِتْس، 2012، 29 آب).

الاستيطانيّ "يقيم مجتمعًا استعماريًّا جديدًا على الأرض التي استولَوْا عليها من أصحابها"، وذلك لأنّ "المحتلّين المستعمرين يأتون للبقاء على الأرض؛ فإنّ هذا الغزو هو بنْية وليس حدثًا منفردًا". وكما يبدو جليًّا من خلال السياسات الإسرائيليّة تجاه الفلسطينيّين، فإنّ "محو الشعب الأصلانيّ هو مبدأ أساسيّ لتنظيم مجتمع الاستعمار الاستيطانيّ، وليس حدثًا لمرّة واحدة (أو ينتهي أمده)" (Wolfe, 2006, p. 388). يَسُوق وولف العديد من الأمثلة على الإستراتيجيّات المستمَدّة من هذا المبدأ التنظيميّ.[28] لكنْ ما يفتقر إليه هذا التحليل هو قوّة الفعل أو الفاعليّة ("Agency") لدى السكّان الأصلانيّين، وكيف تتجلّى إستراتيجيّات المستوطنين من خلال صيرورة ("Process") في مقدورها أن تتغيّر من خلال تفاعل المستوطِنين مع مقاوَمة المستَعمَرين (وعوامل أخرى -نحو: القوى العالميّة والإقليميّة؛ تأكيدات حقوق الإنسان الدوليّة...).

يمكن لهذه الإستراتيجيّات أن تتطوّر في اتّجاهات مختلفة، وأن تُفضي إلى سياسات مختلفة، ضمن الخطوط العامّة المحدِّدة لهذه البنْية. وفي حين تشير البنْية إلى "المبادئ الناظمة"، أجادل بأنّ الصيرورة -أي التفاعل مع فاعليّة المستعمَرين وأشكال مقاومتهم المتعدّدة (التي تُعدَّل وتُكيَّف كذلك خلال هذه الصيرورة)- تؤثّر في الديناميّات الداخليّة لمجتمع الاستعمار الاستيطانيّ: علاقات القوّة بين تيّاراته المتعدّدة، والتنوّعات الأيديولوجيّة الداخليّة، وبروز أو تراجع أو اختفاء توجُّهات أيديولوجيّة، واللجوء إلى أنماط جديدة من الشَّرْعَنة، وبروز قوًى مناهِضة للاستعمار داخل ذلك المجتمع نفسه (في حالتنا، تلك قوًى معادية للصهيونيّة). ومن ثَمّ، وبوصفه بنْية، هناك إجماع في الوقت الحاليّ لدى جميع تيّارات الصهيونيّة، الدينيّة منها والعلمانيّة، على دولة يهوديّة حصريّة بامتيازات يهوديّة، وعلى قضايا جوهريّة أخرى (مثل إنكار حقّ العودة للّاجئين الفلسطينيّين)، لكن لا إجماعَ حول قضايا مرتبطة بعلاقات الدولة والدين في القضايا الشخصيّة مثلًا، أو بالعلاقات بالفلسطينيّين، أو مدى الرغبة في حلّ الدولتين، أو حتّى وجهة النظر داخل التيّارات الصهيونيّة في ما إذا كان مشروع الاستيطان في الضفّة الغربيّة مشروعَ احتلال، أو استعمارًا استيطانيًّا، أو مشروعًا "قوميًّا" للعودة إلى الوطن -تمامًا كما في ذاك الجزء من فلسطين الذي سيطروا عليه /احتُلّ قبل عام 1967.[29]

عند تطبيق هذا التمييز بين بنْية وصيرورة في إطار ديناميّات الاستعمار الاستيطانيّ، نرى أنّ المشروع الصهيونيّ، بوصفه بنْية للمحو والاستبدال المستمرّ، لم يحتَجْ، في السياق التاريخيّ

28. تتضمّن هذه الأمثلة "تمازج واختلاط الأجناس الذي يشجّعه المستوى الرسميّ، وتفتيت ملكيّات السكّان الأصلانيّين إلى ملكيّات فرديّة قابلة للتصرّف بها، والمواطَنة الأصلانيّة، واختطاف الأطفال، والتحوُّل إلى ديانة أخرى، وإعادة الاختلاط الاجتماعيّ في مؤسَّسات كاملة، مثل الإرساليّات أو المدارس الداخليّة، وطيفًا واسعًا من عمليّات الاستيعاب الثقافيّ الحيويّ المشابه". معظم هذه الأمثلة ليس له صلة بحالتنا -أي بالصهيونيّة (Wolfe, 2006).

29. لا يظهر هذا الفرق أو الاختلاف بين الفصائل الصهيونيّة المختلفة حيال إسرائيل نفسها التي يُنظَر إليها، وبإجماع، باعتبارها عودة إلى أرض الوطن.

والعالميّ لإنشاء إسرائيل (خلال ما أُطلِق عليه المرحلة "العلمانيّة")، إلى اللجوء على نحوٍ مكثّف إلى الشَّرْعَنة الدينيّة، كما احتاجها المشروع منذ منتصف السبعينيّات. هُزِمت الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة في عام 1948، ولم تولَد من جديد إلّا في منتصف الستّينيّات. في المقابل، كانت إسرائيل قد حظِيَتْ باعترافٍ وتأييد واسعَيْن من جميع القوى العظمى، بما فيها الاتّحاد السوفياتيّ (الدولة الأولى التي اعترفت بها). وتمتّعت إسرائيل بالتعاطف الأوروبيّ في مرحلة ما بعد الهولوكوست والشعور بالذنب، مع بعض الشعور (المستحقّ) بالعار، واعتمدت في الدفاع عن شرعيّتها على خطّة الأمم المتّحدة للتقسيم لعام 1947 (على الرغم من أنّ إسرائيل منذ إقامتها تجاوزت، إلى مدًى بعيد، الحدودَ التي خُصِّصت للدولة اليهوديّة بموجب هذه الخطّة). أمّا المستعمَرون، فكانوا مبعثَرين ديمچرافيًّا خارج وطنهم، بينما بقيت مجموعة ضعيفة منهم، يقارب عددها 160 ألف فلسطينيّ، كمواطنين إسرائيليّين، لكنّهم أُخضِعوا للحكم العسكريّ حتّى عام 1966، مُغيَّبين عن العيون اليهوديّة داخليًّا، والعالم خارجيًّا، ومُخضَعين لأجهزة الاستعمار الاستيطانيّ (Bäuml, 2017; Rouhana & Sabbagh-Khoury, 2015). كان الأمن هو مبرّر الهيمنة واستمرار الاستعمار الداخليّ وقتذاك (Rouhana, 1997)؛ وفي تلك الفترة -ما قبل نهوض المقاومة الفلسطينيّة في منتصف الستّينيّات- لم تكن ثمّة حاجة إلى الادّعاءات الدينيّة الناشطة من أجل السيطرة على فلسطين في حدود ما قبل عام 1967. ومن ثَمّ كان في مقدور القوى العلمانيّة أن تنأى بنفسها عن الخطاب الدينيّ غير الضروريّ، الذي استخدمته القيادة "العلمانيّة" من أجل إضفاء الشرعيّة في الفترات اللاحقة.

خلَقَ الإدماج التدريجيّ للأراضي الفلسطينيّة المحتلّة في عام 1967، ضمن إطار مشروع الاستعمار الاستيطانيّ والسياسات المتواصلة تجاه المجتمع الفلسطينيّ داخل إسرائيل -وهو الذي أصبح أكثر قوّة وصلابة عبْر السنين- خلقَ صيروراتٍ مختلفةً ضمن البنْية نفسها التي تشكّلت بسبب المقاومة الفلسطينيّة. ففي حين هُمِّش موضوع شرعيّة إسرائيل كدولة، على وجه التحديد مع اعتراف منظّمة التحرير بإسرائيل ضمن إطار اتّفاقات أوسلو الموقَّعة في عام 1993، برزت قضيّتان رئيسيّتان في ما يتعلّق بموضوع الشرعيّة: الأولى تمثّلت في كيفيّة إضفاء الشرعيّة على مشروع إدماج الضفّة الغربيّة أو أجزاء منها (بما في ذلك القدس الشرقيّة) جغرافيًّا وديمچرافيًّا وسياسيًّا ونفسيًّا بوصفها جزءًا لا يتجزّأ من أرض إسرائيل (Lustick, 1993). أمّا الثانية، فتمثّلت في مطالَبة إسرائيل الفلسطينيّين بالاعتراف بإسرائيل دولةً يهوديّة (بشارة، 2005؛ Ghanem, 2014; Rouhana, 2018).

يفتقر المشروع الاستيطانيّ بمستوطناته الـ 131 في الضفّة الغربيّة،[30] وَ 110 مواقع أو

30. لا يشمل هذا العدد القدس الشرقيّة المحتلّة أو البؤر الاستيطانيّة في الخليل.

بؤر استيطانيّة، وما يقدَّر بِـ 623,000 مستوطن (حتّى نهاية عام 2017) (B'Tselem, 2017/2019)، إلى الشرعيّة الدوليّة[31] والإجماع الإسرائيليّ الداخليّ. بَيْدَ أنّ الأهمّ يبقى في أنّ المشروع الاستيطانيّ يواجه رفضًا ومقاومةً فلسطينيّةً ناشطةً واسعةً، بأشكال متعدّدة، مدعومة بإجماع فلسطينيّ منذ بداية الاحتلال في الأراضي المحتلّة في عام 1967 وقبل ذلك في الشتات. إنّ المقاومة الفلسطينيّة متواصلة في الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة منذ عام 1967، وبأشكالٍ مختلفة، بلغت ذروتها خلال انتفاضتَيْن رئيسيّتَيْن (إحداهما مدنيّة والأخرى تعسكرت)، واستمرّت كلّ واحدة منهما عدّة سنوات؛ إذ اندلعت الأولى في عام 1987، والثانية في عام 2000. ويتحدّى الفلسطينيّون داخل إسرائيل شرعيّة الدولة اليهوديّة ولا يقبلون بها، ويطالبون بأغلبيّتهم بأن تتحوّل إسرائيل من دولة يهوديّة إثنيّة غير ديمقراطيّة إلى دولة ديمقراطيّة لجميع مواطنيها كما اقترح حزب التجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ في سنوات التسعين من القرن الماضي. ويقاوم أهل القدس على نحوٍ ناشطٍ عمليّةَ التهويد الاستعماريّة. وأمّا في غزّة، فهم يستخدمون شتّى أشكال المقاومة، التي انعكست بقوّة في مسيرات العودة الكبرى الشعبيّة السلميّة نحو حدود إسرائيل؛ إضافة إلى حركة مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها (BDS) التي أصبحت قوّة عالميّة تضغط في اتّجاه مناهضة السياسات الإسرائيليّة، وتحديدًا بين أوساط المجموعات الدوليّة الأكاديميّة والثقافيّة. والمشترَك بين جميع هذه الأشكال من المقاومة هو رفض شرعيّة الدولة اليهوديّة، وبطبيعة الحال رفض سياساتها في الأراضي المحتلّة عام 1967، على نحوِ ما تجلّى في هبّة الكرامة الأخيرة (في أيّار عام 2021) التي شارك فيها الفلسطينيّون في جميع مناطق فلسطين التاريخيّة وفي الشتات.

بوسع المرء أن ينظر إلى النشاطات الاستيطانيّة وأشكال العنف المرتبطة بها باعتبارها مستمَدّة من بنْية الاستعمار الاستيطانيّ، لكن المقاومة التي لا تتوقّف ولا تلين التي يقوم بها

31. من المهمّ الملاحَظة أنّ الولايات المتّحدة، وهي الدولة الوحيدة التي عبّرت عن آراء تدعم الاعتراف بضمّ أجزاء من الضفّة الغربيّة، قد استدعت الاعتبارات الدينيّة، على الأقلّ كما عبّر عنها سفيرها في إسرائيل، حيث أعلن ديفيد م. فريدمان، السفير الأميركيّ في إسرائيل، عن أنّه "بموجب ظروف معيّنة، يحقّ لإسرائيل الاحتفاظ ببعض لا كلّ الضفّة الغربيّة على الأرجح". وأضاف أنّه يحقّ لإسرائيل قطعًا "الاحتفاظ بجزء منها" (Halbfinger, 2019b).

يُذكّر هالبفنجر القارئ بأنّ "أغلبيّة سكّان العالم تَعتبر المستوطنات الإسرائيليّة غير قانونيّة وستنظر إلى عمليّة الضمّ على أنّها تضاعف من الجريمة". وتضفي حقيقة كون السيّد فريدمان "داعمًا أميركيًّا رئيسيًّا لمشروع الاستيطان الإسرائيليّ حتّى قبل تعيينه" بعدًا مثيرًا للاهتمام لتصريحاته. وكما يطرح نوح لانداو، لأنّه بموجب القانونيّ الدوليّ لا حقّ لإسرائيل في هذه المناطق، فإنّ السفير كان "يشير إلى الحقوق التاريخيّة أو الدينيّة" (Landau, 2019).

هذه القراءة لتصريحات السفير على أنّها كانت تشير إلى الحقوق الدينيّة تعزّزت من خلال تصريحات سابقة لفريدمان: "لدى إسرائيل سلاح سرّيّ واحد لا يملكه العديد من الدول، ألا وهو أنّ إسرائيل إلى جانب الله، ونحن لا نستهين بذلك". ويكتب هالبفنجر في الدراسة نفسها أنّ حنان عشراوي، عضو اللجنة التنفيذيّة لمنظّمة التحرير [آنذاك]، أشارت إلى أنّه "المناسَبة التي أدلى خلالها السيّد فريدمان بهذه التصريحات، وأصداءها التي تحمل بذور الحرب الدينيّة، قد عُقدت في فندق يقبع على مرمى حجر من أسوار البلدة القديمة، حيث تناحر الصليبيّون والمسلمون قرونًا عدّة". وأضافت: "آخر مرّة كان لدينا أشخاص في فلسطين يفكّرون بهذه الطريقة كانت في القرون الوسطى، فانظروا الآن ما حدث" (Halbfinger, 2019a).

السكّان الأصلانيّون في أرضهم، إضافة إلى الحراك الدوليّ، وتصاعُد الشجب الدوليّ لممارسات سرقة الأرض، وحتّى في بعض أوساط المجتمع المدنيّ الإسرائيليّ، تلك كلّها صيرورات تقود النظام الاستيطانيّ إلى البحث عن سُبُل شَرْعَنة جديدة. بدون الشرعيّة، سوف يُكشف أنّ إسرائيل والصهيونيّة هما مشروع استعمار استيطانيّ واضح. لذا، تستند عمليّة إضفاء الشرعيّة اليوم، على نحو صريح، إلى الادّعاءات الدينيّة، ولو لم يُبدِ الفلسطينيّون مقاومة شديدة، لَمَا احتاج العلمانيّون إلى اللجوء إلى نظام شَرْعنة قائم على الدين، ولَمَا تناغم الارتفاع الحادّ في منسوب القوميّة الدينيّة والسياسة ذات الطابع المقدَّس مع الحاجة إلى إضفاء الشرعيّة،[32] وكذلك لَما احتاجت إسرائيل إلى قَوْنَنة العنصريّة رسميًّا في قانون "إسرائيل الدولة القوميّة للشعب اليهوديّ" اعتمادًا على الرواية التوراتيّة.

أمّا القضيّة الثانية المرتبطة بالشرعيّة -ألا وهي الطلب إلى الفلسطينيّين الاعتراف بإسرائيل دولةً للشعب اليهوديّ- فهي مثال آخَر على الصيرورة التي أَمْلتها مقاومة السكّان الأصلانيّين لبنْية الاستعمار الاستيطانيّ. لقد عملت إسرائيل على تصميم وهندسة مبنى الدولة لتَكُون دولةً للشعب اليهوديّ منذ انطلاق المشروع الصهيونيّ. إنّ هذه البنْية، التي وجّهت بناء الدولة من ناحية مفاهيميّة، هي التي أدّت منطقيًّا إلى التطهير العرقيّ للفلسطينيّين في عام 1948 ومنعتهم من العودة، كما وجّهت العديد من السياسات التي انبثقت بعد ذلك. أمّا النضال الذي مارسه الفلسطينيّون في إطار هذه البنْية الهيكليّة، فهو ما دفع إسرائيل إلى أن تطالب باعتراف واضح وصريح بها باعتبارها دولةً للشعب اليهوديّ.

بدأ ذلك النضال مع مطالب المواطنين الفلسطينيّين بالمساواة، وتُوِّج في برنامج سياسيّ يدعو إلى تحويل إسرائيل إلى "دولة لكلّ مواطنيها"، كما عبّر عنه الحزب العربيّ السياسيّ، التجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ، الذي أُسّس في عام 1995 بقيادة عزمي بشارة (Rouhana & Sabbagh-Khoury, 2015). فقد تحدّى الحزب هُويّة الدولة اليهوديّة، واستمرّ في النضال على نحوٍ واضح ومثابر، على الرغم من الملاحقات السياسيّة والقانونيّة. واليوم انتشر خطابه بين مختلف النُّخَب الفلسطينيّة النافذة.

يأتي قانون القوميّة الذي أقرّته إسرائيل مؤخَّرًا ليُعرّف إسرائيل مجدَّدًا، لكن على نحوٍ أكثر وضوحًا، بالإشارة إلى الشعب اليهوديّ (عوضًا عن مواطنيها)، ردًّا على ذلك. ينصّ القانون على أنّ "دولة إسرائيل هي الوطن القوميّ للشعب اليهوديّ، يحقّق فيها حقّه الطبيعيّ والثقافيّ والدينيّ والتاريخيّ في تقرير المصير".[33] يجب علينا أن نلاحظ أنّ كلًّا من الادّعاءِ

32. استغلّت إسرائيل التوجُّهات العالميّة المعادية للإسلام (الإسلاموفوبيا)، وتحديدًا بعد الهجمات الإرهابيّة في الحادي عشر من أيلول عام 2001 في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وحاولت أن تؤطّر المقاومة الفلسطينيّة وتُدْرجها ضمن هذه التوجُّهات، غير أنّ ذلك لم يكن كافيًا لشَرْعَنة سياسات الاستعمار الاستيطانيّ.

33. قانون أساس القوميّة. مصدر سابق.

أنّ دولة إسرائيل هي دولة الشعب اليهوديّ، وقانونِ القوميّة، مستمَدّ من الشَّرْعَنة الدينيّة لمشروع الاستعمار الاستيطانيّ، وأنّ القيادات والزعامات الصهيونيّة "العلمانيّة" هي التي ضغطت بقوّة من أجل إقرارهما. تريد إسرائيل -في أساس ما تريد- أن يعترف الفلسطينيّون بمشروع الاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّ بوصفه شرعيًّا، وأن يقبلوا بأسس وجوهر هذه الشرعيّة التي تحفل بالادّعاءات الدينيّة اليهوديّة، كما عبّر عنها سفير إسرائيل لدى الأمم المتّحدة في الاقتباس المشار إليه في المبحث الافتتاحيّ من هذه الدراسة.

بدلًا من خاتمة: حول تفكيك الاستعمار الاستيطانيّ

لقد طرحت في هذه الدراسة أنّه في إطار الصهيونيّة، ينصهر الدينيّ مع القوميّ، وكلاهما مندمج ضمن مستحقّات الاستعمار الاستيطانيّ. وبناء عليه، فإنّ الصهيونيّة هي قوميّة استعمار استيطانيّ، تستمدّ شرعيّتها من الادّعاءات الدينيّة. وتبدو المكوّنات الثلاثة، الاستعمار الاستيطانيّ والقوميّة والدين، التي تحرّك الصهيونيّة متداخلة، إلى الحدّ الذي يصعب معه فصل بعضها عن بعض. حتّى الآن، كان تسليط الضوء على جانب الاستعمار الاستيطانيّ، وأساسًا من ضحايا الصهيونيّة والمنظّرين النقديّين، إلى جانب ما تبوح به الوقائع والحقائق على الأرض، بينما جرى التقليل، في الخطاب الأكاديميّ، من شأن وأهمّيّة المكانة المركزيّة للادّعاءات الدينيّة التي تدعم التيّار العامّ في الصهيونيّة العلمانيّة. وعوضًا عن ذلك، ركّز الخطاب الأكاديميّ على دَوْر الدين في الحركات الدينيّة القوميّة حصرًا، وعلى زحف التديُّن إلى المجال العامّ، وليس بوصفه عنصرًا متأصّلًا في الصهيونيّة، بما فيها الصهيونيّة "العلمانيّة". مع ذلك، فإنّ نشرَ الادّعاءات الدينيّة وتعميمَها لشَرْعَنة السبب الوجوديّ ("Raison d'être") للصهيونيّة نفسه، وتصاعُدَ الاستشهاد بهذه الادّعاءات لشَرْعنة توسُّع الاستعمار الاستيطانيّ ليشمل الضفّة الغربيّة، بما فيها القدس الشرقيّة، تُعتبَر حاسمة، وأذهب بالقول إلى أنّها لا غنى عنها، بالنسبة إلى الصهيونيّة بشقَّيْها الدينيّ والعلمانيّ، كي تتجنّب مواجهة حقيقتها بوصفها استعمارًا استيطانيًّا. من هنا، فإنّ قضيّة تفكيك الاستعمار والتحوّل العلمانيّ والديمقراطيّة هي كلّها قضايا وأسئلة متشابكة في إسرائيل.

دعونا نبدأ بقضيّة تفكيك الاستعمار. كي تواجه الصهيونيّة حقيقتها الاستعماريّة الاستيطانيّة -وهو بالطبع الشرط المسبق الواضح لتفكيك الاستعمار- عليها أن تعمل على الانفكاك عن الادّعاء الدينيّ في الحقّ بتأسيس دولة يهوديّة حصريّة في فلسطين. لذا، يتطلّب تفكيك الاستعمار، بالضرورة، التحوُّلَ إلى العلمانيّة، أي فصل القوميّة اليهوديّة عن الادّعاءات الدينيّة. وحتّى تستطيع القوميّة اليهوديّة، كما عرّفتها الصهيونيّة، إدراكَ وإقرار مواجهة الاستعمار الاستيطانيّ فيها، يجب عليها أن تُحيّد الجانب الدينيّ. لكن الادّعاءات الدينيّة تقف حائلًا أمام

الإقرار والاعتراف بالتاريخ، وتسهِّل عمليّة تعزيز الادّعاء بالحقّ في فلسطين وتصليبه، من دون تعريف جوهرها الاستعماريّ الاستيطانيّ. لذا فإنّها تفتح الباب وتفسح المجال أمام مزيد من النفوذ الدينيّ على الحيّز العامّ. وبالعودة إلى المثال المتخيّل لأوغندا، كان ممكنًا أن تَجري عمليّة التحوُّل العلمانيّ لمشروع الاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّ في أوغندا، كما هي الحال في سياقات أخرى من الاستعمار الاستيطانيّ -مثل جنوب أفريقيا وإيرلندا الشماليّة وأميركا الشماليّة- لأنّها على العكس من الصهيونيّة في فلسطين، لم تكن الادّعاءات الدينيّة أساسيّة لشرعيّة استمرارها في تلك الحالات، أو في حالةِ أوغندا الفرضيّةِ. لقد كانت للصهيونيّة قوّة دافعة متأصّلة باتّجاه استخدام الادّعاءات الدينيّة لشَرْعَنة سياسات استعماريّة استيطانيّة، وصار فخّ الصهيونيّة يكمن في حاجتها الأساسيّة إلى الادّعاءات الدينيّة من أجل شرعيّتها.

إنّ احتماليّة تحرير الصهيونيّة من الادّعاء الدينيّ هو أمرٌ غير وارد، فهو تمامًا كمن يحاول أن يحرّر الرأسماليّة من السوق الحرّة أو رأس المال، أو كمن يحاول أن يبعد الشيوعيّة عن الصراع الطبقيّ؛ سيبدو الأمر وكأنّ الشخص يحاول استخراج الهندوسيّة من الهندوتفا. لكن ليس من المستحيل أن يجري فكّ الارتباط بين القوميّة اليهوديّة في إسرائيل والادّعاءات الدينيّة، ومن ثَمّ فكّها من الاستعمار الاستيطانيّ من خلال تحويلِ إسرائيل نفسها إلى دولة لكلّ مواطنيها، أو توسيعِ مفهوم دولة المواطنين ليشمل كلّ فلسطين، بحيث يجري الاعتراف على قَدم المساواة بكلّ من القوميّة اليهوديّة والقوميّة الفلسطينيّة. مُجدَّدًا نذكّر بأنّ تحقيق ذلك ممكن من خارج إطار الصهيونيّة. من الواضح أنّ من شأن هذا أن يفسح المجال أمام مستقبل سياسيّ مشترك أرحب مع الفلسطينيّين، لكن مناقشة ذلك بالكامل تتجاوز نطاق هذه الدراسة وتركيزها. لقد طَرح هذه الفكرةَ في تسعينيّات القرن الماضي مفكّرٌ فلسطينيّ، هو عضو الكنيست السابق عزمي بشارة، واعتُبِرت داخل المجتمع اليهوديّ، بطبيعة الحال، فكرة سياسيّة متطرّفة. لكن يبدو أنّ كثيرين ممّن يناقشون التحوُّل الديمقراطيّ وإنهاء الاستعمار الاستيطانيّ في إسرائيل يعودون مرارًا إلى الفكرة ذاتها -دولة المواطنين- وإن كان تطبيقها في الواقع السياسيّ الحاليّ يتطلّب التفكير في كلّ فلسطين.[34]

كي تصبح المساواة والدولة المدنيّة من الأسس التي تقوم عليها عمليّة تحوُّل علمانيّ في إسرائيل، يستوجب الأمر عمليّة تفكيك الاستعمار الاستيطانيّ، وبالعكس، إذ إنّ السيرورتين متداخلتان تداخلًا كاملًا. ويتطلّب ذلك ترك الوعود الدينيّة خارج الفكر السياسيّ. إنّ المَهَمّة الملحّة، فكريًّا، هي إزاحة النقاش من التفكير المعتمِد على سرديّات دينيّة وتفكير أسطوريّ أوصل الصهيونيّة إلى الدولة الإثنيّة اليهوديّة الحصريّة الناتجة عن مشروع استيطانيّ، إلى المطالَبة بمستقبل مشترَك في كلّ فلسطين يعتمد تفكيكَ الكولونياليّة الاستيطانيّة

34. انظروا -على سبيل المثال-: (Ram, 2008).

وامتيازات المجموعة الكولونياليّة، واستبدالَها بنظام يعتمد المساواة التامّة والمواطَنة الديمقراطيّة. وكما قال الناقد الأدبيّ الصربيّ ميودراج پوپوڤيتْش Miodrag Popović في حديثه عن السياق الصربيّ: "عندما يصبح التفكير الأسطوريّ البائد توجُّهًا ذهنيًّا دائمًا وذهنيّة جماعيّة أو ثقافة وطنيّة، ويُمَأسَس بوصفه أسطورة وطنيّة قوميّة ومكوِّنًا أساسيًّا للهُويّة الجماعيّة، عندذاك فقط يمكنه أن يصبح قاتلًا ومميتًا للناس غير القادرين على مقاومة سِحره التاريخيّ الزائف". هذا ينطبق على الصهيونيّة ومشروعها وعنفها، ويشير إلى بعض معالم التغيير المطلوبة.

المَراجع

الشريف، ماهر. (1995). **البحث عن كيان: دراسة في الفكر السياسيّ الفلسطينيّ 1908-1933**. نيقوسيا - قبرص: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكيّة في العالم العربيّ.

بشارة، عزمي. (2005). **من يهوديّة الدولة حتّى شارون: دراسة في تناقض الديمقراطيّة الإسرائيليّة**. القاهرة: دار الشروق.

حسون، شلومو. (2014). **الدين والدولة في إسرائيل - السيناريوهات الممكنة**. واشنطن: مركز جوزيف وألما چايلدنهورن للدراسات الإسرائيليّة. [بالعبريّة]

راز- كاركوتسكن، أمنون. (2005). لا يوجد الله ولكنّه وعدَنا بالأرض. **نيابةً عن** ("مِطاعَم") - مجلّة للأدب والفكر الراديكاليّ، 3. ص 71–76. [بالعبريّة]

روحانا، نديم. (2014). المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ: نحو استعادة الإطار الكولونياليّ الاستيطانيّ. **مجلّة الدراسات الفلسطينيّة**، 25(97). ص 18-36.

قانون أساس: إسرائيل - الدولة القوميّة للشعب اليهوديّ (ترجمة عدالة). (دون تاريخ). حيفا: عدالة.

قانون العودة -1950 ت.ش.ي. **كتاب القوانين 1950**. ص 159. [بالعبريّة]

ليبوڤِتْس [leibowitzy]. (2012، 29 آب). **ليبوڤِتْس يحاور عزمي بشارة** (فيديو). يوتيوب. https://www.youtube.com/watch?v=SPazJTyNuY0 . [بالعبريّة]

هآرتس. (2019). إردان: المجتمع العربيّ شديد العنف. في نزاعاتنا التي تنتهي بدعوى، يسحبون الأسلحة. **هآرتس**. [بالعبريّة] مستقاة من: https://www.haaretz.co.il/news/law/1.7950349

Abdel Jawad, Saleh. (2006). The Arab and Palestinian narratives of the 1948 war. In Rotberg, Robert I. (Ed.). **Israeli and Palestinian narratives of conflict: History's double helix** (pp. 72–114). Indianapolis: Indiana University Press.

Abdel Jawad, Saleh. (2007). Zionist massacres: The creation of the Palestinian refugee problem in the 1948 war. In Benvenisti, Eyal; Gans, Chaim, & Hanafi, Sari (Eds.). **Israel and the Palestinian Refugees** (Vol. 189, pp. 59–127). Berlin: Springer.

Abu El-Haj, Nadia. (2001). **Facts on the ground: Archaeological practice and territorial self-fashioning in Israeli society**. Chicago: The University of Chicago Press.

Akenson, Donald H. (1992). **God's peoples: Covenant and land in South Africa, Israel, and Ulster**. Ithaca: Cornell University Press.

Azaryahu, Maoz, & Golan, Arnon. (2001). (Re)naming the landscape: The formation of the Hebrew map of Israel 1949–1960. **Journal of Historical Geography**, 27(2). Pp. 178–195.

Barak-Erez, Daphne. (2009). Law and religion under the status quo model: Between past compromises and constant change. **Cardozo Law Review**, 30(6). Pp. 2495-2507.

Bar-Tal, Daniel, & Salomon, Gavriel. (2006). Israeli-Jewish narratives of the Israeli-Palestinian conflict: Evolution, contents, functions, and consequences. In Rotberg, Robert I. (Ed.). **Israeli and Palestinian narratives of conflict: History's double helix** (pp. 19-46). Bloomington: Indiana University Press.

Bäuml, Yair. (2017). Israel's military rule over Its Palestinian citizens (1948–1968): Shaping the Israeli segregation system. In Rouhana, Nadim N. (Ed.). **Israel and its Palestinian citizens: Ethnic privileges in the Jewish state** (pp. 103–136). Cambridge: Cambridge University Press. Cambridge Core. https://doi.org/10.1017/CBO9781107045316.005

Beit-Hallahmi, Benjamin. (1992). **Original sins: Reflections on the history of Zionism and Israel**. London: Pluto Press.

Benvenisti, Meron. (2002). **Sacred landscape: The buried history of the Holy Land since 1948**. Berkeley, Calif. London: University of California Press.

Bishara, Azmi. (2017). Zionism and equal citizenship: Essential and incidental citizenship in the Jewish state. In Rouhana, Nadim N. (Ed.). **Israel and its Palestinian citizens: Ethnic privileges in the Jewish state** (pp. 137–155). Cambridge: Cambridge University Press. Retrieved from http://www.vlebooks.com/vleweb/product/openreader?id=none&isbn=9781316984031

Bishara, Suhad. (2018). The Jewish National Fund. In Rouhana, Nadim N., & Sabbagh-Khoury, Areej (Eds.). **The Palestinians in Israel Readings in History, Politics and Society** (Vol. II). Haifa: Mada al-Carmel.

Brand, Deborah. (2016, July 5). WATCH: Ugandan President's hilarious Gaffe-filled speech to Israeli Prime Minister Netanyahu. **Breitbart**. Retrieved from https://www.breitbart.com/middle-east/2016/07/05/watch-ugandan-presidents-hilarious-gaffe-filled-speech-israeli-prime-minister-netanyahu/

Brubaker, Rogers. (1988). **Citizenship and nationhood in France and Germany**. Cambridge, Mass.: Harvard Univ. Press.

B'Tselem. (2017). **Settlements** (updated 16 January 2019). B'Tselem – The Israeli Information Center for Human Rights in the Occupied Territories. Retrieved from https://www.btselem.org/settlements

CBS. (2018). **Population of Israel on the eve of 2019 – 9.0 million** (No. 394). Jerusalem. Retrieved from https://bit.ly/2Z3VR6A

CBS. (2019a). **Localities and population, by population group, district, sub-district and natural region** (No. 70). Jerusalem: Central Bureau of Statistics. Retrieved from https://www.cbs.gov.il/en/publications/Pages/2019/Population-Statistical-Abstract-of-Israel-2019-No-70.aspx

CBS. (2019b). **Population, by population group** (No. 70). Jerusalem: Central Bureau of Statistics. Retrieved from https://www.cbs.gov.il/en/publications/Pages/2019/Population-Statistical-Abstract-of-Israel-2019-No-70.aspx

Danon, Danny. (n.d.). **Amb. Danon's first UN speech- Middle East Debate**. Retrieved October 24, 2021, from: https://embassies.gov.il/un/statements/Pages/Amb.-Danon's-first-UN-speech.aspx

Danon, Danny. (2019, April 29). **Jewish ownership of the Land of Israel**. Retrieved from https://embassies.gov.il/un/statements/security_council/Pages/stme-sc-danon-april-2019.aspx

Davis, Walter. T., & Coffman, Pauline. (2014). From 1967 to the present: The triumph of revisionist Zionism. In Wagner, Donald E., & Davis, Walter T. (Eds.). **Zionism and the quest for justice in the Holy Land** (pp. 28–62). Cambridge: Lutterworth Press.

Erakat, Noura. (2019). **Justice for some: Law and the question of Palestine**. Stanford, California: Stanford University Press.

Fine, Steven. (2016). **The menorah: From the Bible to modern Israel**. Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press.

Gans, Chaim. (2008). **A just Zionism: On the morality of the Jewish state**. New York; Oxford: Oxford University Press.

Ghanim, Honaida (ED.). (2014). **On Recognition of the "Jewish State"**. Ramallah: Madar The Palestinian Forum for Israeli Studies.

Goldman, Shalom. (2004). **God's sacred tongue: Hebrew & the American imagination**. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Gross, Aeyal. (2013, October 3). Court rejection of Israeli nationality highlights flaws of Jewish democracy. **Haaretz**. Retrieved from https://www.haaretz.com/opinion/.premium-is-israeli-a-nationality-1.5344174

Halbfinger, David. M. (2019a, May 14). US. ambassador says Israel is 'on the side of god.' **The New York Times**. Retrieved from https://www.nytimes.com/2019/05/14/world/middleeast/us-ambassador-israel-god.html?searchResultPosition=1

Halbfinger, David. M. (2019b, August 6). US ambassador says Israel has right to annex parts of West Bank. **The New York Times**. Retrieved from https://www.nytimes.com/2019/06/08/world/middleeast/israel-west-bank-david-friedman.html?searchResultPosition=1

Herzog, Ze'ev. (2001). Deconstructing the walls of Jericho: Biblical myth and archaeological reality. **Prometheus**, 19(4). Pp. 72–93.

Holmes, Oliver. (2019, April 7). Netanyahu vows to annex Jewish settlements in occupied West Bank. **The Guardian**. Retrieved from http://www.theguardian.com/world/2019/apr/07/netanyahu-vows-to-annexe-jewish-settlements-in-occupied-west-bank

Hovel, Revital. (2013, October 3). Supreme Court rejects citizens' request to change nationality from "Jewish" to "Israeli". **Haaretz**. Retrieved from https://www.haaretz.com/.premium-court-israeli-isn-t-ethnicity-1.5343897

Hroub, Khaled. (2021). Palestinian nationalism, religious (un)claims, and the struggle against Zionism. In Rouhana, Nadim N. & Shalhoub-Kevorkian, Nadera (Eds.). **When politics are sacralized: Comparative perspectives on religious claims and nationalism** (1st ed., pp. 365–386). Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/9781108768191.015

Jabareen, Hassan, & Bishara, Suhad. (2019). The Jewish Nation-State law. **Journal of Palestine Studies**, 48(2). Pp. 43–57. https://doi.org/10.1525/jps.2019.48.2.43

Jabareen, Yosef. (2017). Controlling land and demography in Israel: The obsession with territorial and geographic dominance. In Rouhana, Nadim N. (Ed.). **Israel and its Palestinian Citizens: Ethnic Privileges in the Jewish State** (pp. 238-265). Cambridge: Cambridge University Press.

Jewish National Fund renews land purchases from Palestinians in The Occupied Territories. (2017, August 13). **PEACENOW**. Retrieved from https://peacenow.org.il/en/jewish-national-fund-renews-land-purchases-palestinians-occupied-territories

JPOST Staff. (2011, May 24). Text of PM Binyamin Netanyahu's speech to the US congress. **Jerusalem Post**. Retrieved from https://bit.ly/2Z5TLmL

Karayanni, Michael. (2016). Tainted liberalism: Israel's Palestinian-Arab millets. **Constellations**, 23(1). Pp. 71–83. https://doi.org/10.1111/1467-8675.12186

Kats, Yossi. (2016). **The land shall not be sold in perpetuity: The Jewish National Fund and the history of state ownership of land in Israel**. Berlin: De Gruyter.

Khalidi, Rashid. (1997). **Palestinian identity: The construction of modern national consciousness**. New York: Columbia University Press.

Khalidi, Walid. (1992). **Palestine reborn**. I.B. Tauris.

Khalidi, Walid (Ed.). (2006). **All that remains: The Palestinian villages occupied and depopulated by Israel in 1948**. Beirut: Institute for Palestine Studies.

Kornberg, Jacques. (1980). Theodore Herzl: A Reevaluation. **The Journal of Modern History**, 52(2). Pp. 226–252.

Kravel-Tovi, Michal. (2012). Rite of passing: Bureaucratic encounters, dramaturgy, and Jewish conversion in Israel. **American Ethnologist**, 39(2). Pp. 371–388.

Landau, Noa. (2019, June 10). With one word, Trump's envoy sets stage for Israeli annexation of West Bank. **Haaretz**. Retrieved from https://www.haaretz.com/israel-news/.premium-with-one-word-trump-s-envoy-sets-stage-for-israeli-annexation-of-west-bank-1.7344454

Lazaroff, Tova. (2019). Bible is Jewish deed to Land of Israel, settlement envoy tells UNSC. **The Jerusalem Post**. Retrieved from https://www.jpost.com/arab-israeli-conflict/israel-defends-right-to-west-bank-settlements-at-unsc-watch-live-588178

Lesch, Ann M. (1977). Israeli settlements in the Occupied Territories, 1967-1977. **Journal of Palestine Studies**, 7(1). Pp. 26–47. https://doi.org/10.2307/2536527

Levi, Yagil. (2021). The relations between the nationalization of Israel's politics and the religionization of its military, 1948–2016. In Rouhana, Nadim N. & Shalhoub-Kevorkian, Nadera (Eds.). **When politics are sacralized: Comparative perspectives on religious claims and nationalism** (pp. 113–133). Retrieved from https://doi.org/10.1017/9781108768191

Lloyd, David. (2021). Protestantism and settler identity: The ambiguous case of Northern Ireland. In In Rouhana, Nadim N. & Shalhoub-Kevorkian, Nadera (Eds.). **When politics are sacralized: Comparative perspectives on religious claims and nationalism** (1st ed., pp. 309–336). Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/9781108768191.013

Lustick, Ian. (1988). **For the land and the Lord: Jewish fundamentalism in Israel**. New York, N.Y: Council on Foreign Relations.

Lustick, Ian. (1993). **Unsettled states, disputed lands: Britain and Ireland, France and Algeria, Israel and the West Bank-Gaza**. Ithaca: Cornell University Press.

Makdisi, Saree.(2010). The architecture of erasure. **Critical Inquiry**, 36(3). Pp. 519-559.

Mamdani, Mahmood. (2001). Beyond settler and native as political identities: Overcoming the political legacy of colonialism. **Comparative Studies in Society and History**, 43(4). Pp. 651–664.

Masalha, Nur-eldeen. (1992). **Expulsion of the Palestinians: The concept of "transfer" in Zionist political thought, 1882-1948**. Washington, D.C: Institute for Palestine Studies.

Masalha, Nur-eldeen. (2007). **The Bible and Zionism: Invented traditions, archaeology and post-colonialism in Palestine-Israel**. London ; New York: Zed Books.

Masri, Mazen. (2017). **The dynamics of exclusionary constitutionalism: Israel as a Jewish and democratic state**. Oxford ; Portland, Oregon: Hart Publishing.

Matar, Ibrahim. (1981). Israeli settlements in the West Bank and Gaza Strip. **Journal of Palestine Studies**, 11(1). Pp. 93–110. https://doi.org/10.2307/2536048

McSloy, Steven P. (1996). Because the Bible tells me so': Manifest destiny and American Indians. **St. Thomas Law Review**, 9(1), 37–48.

NTVUganda. (2016, July 4). **President Museveni speech at Entebbe during Netanyahu's visit commemorating Entebbe raid** (Video). YouTube. Retrieved from https://www.youtube.com/watch?v=rkM9xBkrwgQ

Pap, András L. (2013). Overruling Murphy's Law on the free choice of identity and the racial-ethnic-national terminology-triad: Notes on how the legal and political conceptualization of minority communities and membership boundaries is induced by the groups' claims. In Henrard, Kristin (Ed.). **The Interrelation between the Right to Identity of Minorities and their Socio-economic Participation** (pp. 115–155). Leiden: Brill | Nijhoff. https://doi.org/10.1163/9789004244740_006

Peled, Yoav, & Herman Peled, Horit. (2019). **The religionization of Israeli society**. London ; New York: Routledge Taylor & Francis Group.

Popović, Miodrag. (2007). **St.Vitus day and the honorable cross** (Vidovdan i časni krst). Belgrade: Biblioteka xx vek. Pp.169-170.

Prior, Michael. (1997). **The Bible and colonialism: A moral critique**. Sheffield: Sheffield Academic Press.

Rabinovitch, Itamar & Reinharz, Jehuda (Eds.). (2007). **Israel in the Middle East: Documents and readings on society, politics, and foreign relations, pre-1948 to the present** (2nd ed). Waltham: Brandeis University Press.

Ram, Uri. (2008). Why secularism fails? Secular nationalism and religious revivalism in Israel. **International Journal of Politics, Culture, and Society**, 21(1). Pp. 57–73. https://doi.org/10.1007/s10767-008-9039-3.

Richman, Rick. (2017, February 10). The 80th anniversary of the Two-State solution. **Mosaic**. Retrieved from https://bit.ly/3ASHwqz

Rouhana, Nadim N. (1997). **Palestinian citizens in an ethnic Jewish state: Identities in conflict**. New Haven: Yale University Press.

Rouhana, Nadim N. (2018). Decolonization as reconciliation: Rethinking the national conflict paradigm in the Israeli-Palestinian conflict. **Ethnic and Racial Studies**, 41(4). Pp. 643–662. https://doi.org/10.1080/01419870.2017.1324999

Rouhana, Nadim N., & Sabbagh-Khoury, Areej. (2015). Settler-colonial citizenship: Conceptualizing the relationship between Israel and its Palestinian citizens. **Settler Colonial Studies**, 5(3). Pp. 205–225. https://doi.org/10.1080/2201473X.2014.947671

Rouhana, Nadim N., & Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (Eds.). (2021). **When politics are sacralized: Comparative perspectives on religious claims and nationalism**. Cambridge New York, NY Port Melbourne, VIC New Delhi Singapore: Cambridge University Press.

Rovner, Adam. (2014). **In the shadow of Zion: Promised lands before Israel**. New York: New York University Press.

Scham, Paul. (2018). A National that dwells alone': Israeli religious nationalism in the 21st century. **Israel Studies**, 23(3). Pp. 207–213.

SEZGIN, Yüksel. (2010). The Israeli Millet system: Examining legal pluralism through lenses of Nation-Building and Human Rights. **Israel Law Review**, 43(3). Pp. 631–654.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2017). The occupation of the senses: The prosthetic and aesthetic of state terror. **The British Journal of Criminology**, 57(6). Pp. 1279-1300.

Shapira, Anita. (2014). **Ben-Gurion: Father of modern Israel**. New Haven: Yale University Press.

Shenhav, Yehouda. (2007). Modernity and the hybridization of nationalism and religion: Zionism and the Jews of the Middle East as a heuristic case. **Theory and Society**, 36(1). Pp. 1–30.

Shezaf, Hagar. (2019, July 5). Burying the Nakba: How Israel systematically hides evidence of 1948 expulsion of Arabs. **Haaretz**. Retrieved from https://www.haaretz.com/israel-news/.premium.MAGAZINE-how-israel-systematically-hides-evidence-of-1948-expulsion-of-arabs-1.7435103

Sultany, Nimer. (2017). The legal structures of subordination: The Palestinian minority and Israeli law. In Rouhana, Nadim N., & S. Huneidi, Sahar (Eds.). **Israel and its Palestinian citizens: Ethnic privileges in the Jewish state** (pp. 191–237). Cambridge University Press.

Tessler, Mark A. (2009). **A history of the Israeli-Palestinian conflict** (2nd ed). Bloomington: Indiana University Press.

Thompson, Gardner. (2019). **Legacy of empire: Britain, Zionism and the creation of Israel**. London: Saqi.

United Nations. (2017). **General Assembly demands all States comply with UN resolutions regarding status of Jerusalem**. Retrieved from https://news.un.org/en/story/2017/12/640152-general-assembly-demands-all-states-comply-un-resolutions-regarding-status

Whitelam, Keith W. (1996). **The invention of ancient Israel: The silencing of Palestinian history**. London: Routledge.

Wolfe, Patrick. (2006). Settler colonialism and the elimination of the native. **Journal of Genocide Research**, 8(4). Pp. 387–409. https://doi.org/10.1080/14623520601056240

Wolfe, Patrick. (2012). Purchase by other means: The Palestine Nakba and Zionism's conquest of economics. **Settler Colonial Studies**, 2(1). Pp. 133–171. https://doi.org/10.1080/2201473X.2012.10648830

Yiftachel, Oren. (1999). 'Ethnocracy': The politics of Judaizing Israel/Palestine. **Constellations**, 6(3). Pp. 364-390.

Zreik, Raef. (2016). When does a settler become a native? (With apologies to Mamdani). **Constellations**, 23(3). Pp. 351–364. https://doi.org/10.1111/1467-8675.12240

يأتي هذا الكتاب حصيلةً للمشروع الذي بادر إليه مدى الكرمل، والذي جمع من خلاله كوكبةً من الأكاديميّين والمحاضرين وطلبة دراسات عليا فلسطينيّين يدرسون في جميع أنحاء فلسطين ضمن ثلاث ورشات دراسيّة امتدّت كلّ منها على مدار سنة. جمَعَ هؤلاء الباحثين الانشغالُ السياسيُّ والأكاديميُّ في فهم الصهيونيّة بوصفها مشروع استعمار استيطانيّ، وفي بحث آليّات هذا المشروع وفرضيّاته وأُسُسه الفكريّة والدينيّة والسياسيّة. كذلك ناقشت الورشات التحوّلات التي مرّ ويمرّ فيها المشروع الصهيونيّ جرّاء فشله، منذ بداياته الأولى، في إخضاع المقاومة الفلسطينيّة المستمرّة على جميع أشكالها.

يأتي كُتّاب وكاتبات المقالات من حقول معرفيّة مختلفة، ويعيشون سياقات جغرافيّة وسياسيّة وقانونيّة وأكاديميّة مختلفة. قارَبَ بعض الكتّاب الصهيونيّةَ ومشروعَها الاستعماريَّ مقارَبةً تاريخيّة، بينما قرأها آخَرون من زاوية ممارساتها على من يعيش في ظلّ منظومتها إمّا داخل أرضه، وإمّا مهجَّرًا داخل بلده، أو خارجها. بعض المقالات بحثت في مقاومة المشروع، أو في الوعي المقاوِم لهذا المشروع. وقد عُنِيَ بعضها الآخَر بتحليل المنظومة نفسها، واشتباك بُعدها الاستعماريّ الاستيطانيّ مع البعدَيْن الدينيّ والقوميّ أو الإنتاج المعرفيّ حولها من قِبل مؤسَّستها الأكاديميّة أو مقاوميها. وقد قرأتْ بعضُ المقالات هذا المشروعَ قراءةً مقارِنةً مع سياقات عربيّة أو عالميّة أخرى.

يُسهم الكتاب في النقاش الدائر حول مكان دراسات الاستعمار الاستيطانيّ في فهم طبيعة الدولة الإسرائيليّة، وفي تطوير إستراتيجيّات فلسطينيّة للتحرُّر على ضوء هذا الفهم.

مدى الكرمل – المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية، هو مؤسسة بحثية مستقلة غير ربحية تأسست عام 2000 في مدينة حيفا. يهتم مدى الكرمل بالتنمية البشرية والقومية في المجتمع، ويهدف إلى تشجيع البحث التطبيقي والنظري حول الفلسطينيين في إسرائيل. ويركز مدى الكرمل على سياسة الحكومة والاحتياجات الاجتماعية والتربوية والاقتصادية للمواطنين الفلسطينيين في إسرائيل وعلى الهوية القومية والمواطنة الديمقراطية. ويسعى المركز إلى توفير قاعدة مؤسساتية ومناخ فكري لدراسة احتياجات الفلسطينيين في إسرائيل ومستقبلهم الجماعي وعلاقتهم بإسرائيل وبباقي أجزاء الشعب الفلسطيني والعالم العربي. كما يسعى إلى تدريب جيل جديد من علماء الاجتماع والسياسة الفلسطينيين على توجهات نقدية في الدراسات الفلسطينية والإسرائيلية.

Zionism and Settler Colonialism: Palestinian Approaches
Edited by: Nadim N. Rouhana and Areen Hawari
ISBN: 978-965-7308-28-8